



بحوث في

نهج البلاغة

(٢)

الخلافة والخلفاء

علي الشيخ سليمان يحفوفي

المحتويات

مقدمة ٤

٦ الفصل الأول: الخلافة والخلفاء

٦ ضرورة الخلافة

٧ شروط الخليفة

٩ تعيين الخليفة

١٣ الفصل الثاني: لمن كانت الوصية؟

١٣ الإشارات المفيدة

١٤ النصّ الصريح

١٨ الفصل الثالث: المؤامرة الكبرى

١٨ الأحداث الخطيرة

١٩ تأمر الأنصار

٢١ احتجاج الإمام عليه السلام

٢٣ موقف الإمام عليه السلام

٢٦ الفصل الرابع: نقد الخلفاء

٢٦ النقد على أبي بكر

٢٧ النقد على عمر

٣١ النقد على عثمان

٣٢ الفصل الخامس: مبررات الإمام عليه السلام

٣٢ زهد الإمام عليه السلام بالخلافة

٣٣ فقدان الناصر

٣٣ خشية وقوع الفتنة

٣٥ الفصل السادس: خلافة عثمان

٣٥ إستئثار عثمان

وعظ الإمام عليه السلام ٣٦

مروان الطريد ٣٨

الدفاع عن عثمان ٣٩

عثمان والثوار ٤٠

٤٢ الفصل السابع: خلافة الإمام عليه السلام

كيفية البيعة ٤٢

مداحض ومزالق ٤٤

٤٦ الفصل الثامن: الناكثون

موقف عائشة ٤٦

موقف طلحة ٤٨

موقف الزبير ٤٩

محاولة مساومة عليّ ٥٠

اجتماع الناكثين ٥٢

تأثيرات الناكثين ٥٥

التوجه الى البصرة ٥٦

موقف أهل الكوفة ٥٨

نهاية المطاف ٦٠

٦١ الفصل التاسع: القاسطون

البداية مع معاوية ٦١

حقيقة معاوية ٦٢

الدعوة للمبايعة من جديد ٦٣

وصف الإمام عليه السلام لابن العاصّ ٦٤

مساومة عمرو بن العاصّ ٦٥

تمامية بيعة الإمام عليه السلام ٦٦

التبرؤ من دم عثمان ٦٧

وجوب قتال القاسطين ٦٩

لقاء صفين ٧١

٧٢ موازنة بين القوى

٧٤ إستفزازات معاوية

٧٧ الفصل العاشر: المارقون

٧٧ عودة الى صفين

٧٨ لا حُكْمَ إِلاَّ لِلّهِ

٧٩ سخرية الموقف

٨٠ إجتماع الحَكَمَين

٨٢ نهاية المطاف مع الخوارج

٨٤ الفهرس الموضوعي

بحوث في نهج البلاغة

(٢)

الخلافة والخلفاء

علي الشَّيخ سليمان يحفوفي

النَّاشِر

جمعية العلامة الشَّيخ سليمان يحفوفي

(قَدَّس سرّه)

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعلّ أول مجابهة حدثت بين المسلمين بعضهم مع بعض، كان سببها منصب الخلافة، ولعلّ أول دماء أريقت بين المسلمين كان الدافع اليها هذا المنصب. وحتى بعد إنقضاء زمن الخلفاء، ومقتل آخرهم - عليّ بن أبي طالب عليه السّلام - فإنّ النزاع حول هذه المسألة لم ينته، بل استمرّ عنيفاً ودموياً في كثير من الأحيان، فكان مجرد إبداء الشّخص رأيه بعدم إقراره بشرعية خلافة البعض، كان ذلك كافياً لملاحقته من قبل السلطة الحاكمة، وأكبر تهمة كانت يمكن أن تُوجّه لإنسان، هي عدم إقراره بشرعية أحد الخلفاء.

وحثّى الى يومنا هذا، بعد مرور أربعة عشر قرناً على بدء المسألة، وبعد انقسام الدولة الاسلاميّة الموحّدة الى دولٍ شتى، فإننا نرى بعضاً من هذه الدول والتي تحكم بإسم الإسلام، ما يزال الصّراع فيها قائماً على هذه المسألة، فلا يزال المنكر لشرعية خلافة بعض الخلفاء مطارداً ومغضوباً عليه من السلطات الحاكمة بإسم الإسلام.

وفي الحقيقة إنّ هذه السلطات لا تفعل ذلك إكراماً للخلفاء وتنزيهاً لهم عن الاتّهام - وإن كانت تدّعي ذلك - بل إنّ الدافع الحقيقي لها هو خوفها وتحسّبها من هذه الفئات، حيث أن الإعتراض على بعض الخلفاء يدل بالأولوية على عدم الرضا عن هذه السلطات، حيث أن السلطة لم تكن لتصل الى أمثال الحكّام الحاليين لو أن خلافة المسلمين سارت في مسارها الطبيعي الذي رسمه لها المشرّع الأعظم.

والإعتراض على الخلفاء - وبالخصوص الأوّل والثّاني - كان من جهة تولّيهم منصباً ليس من حقّهم، وإلا فإن سيرتهم كانت مرضية من جميع المسلمين. وأما الحكّام الحاليين، والذين يعتبرون أنفسهم امتداداً لهؤلاء الخلفاء، فبالإضافة الى إغصابهم الخلافة من أصحابها، فهم يفقدون السّيرة الحسنّة التي رسمها سلفهم.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يتناول مسألة الخلافة والخلفاء، وذلك من خلال نهج البلاغة، وقد جرت عادة المؤلفين حين يتناولون هذا الموضوع أن يذكروا في مقدماتهم، إلزامهم جانب الحياد طيلة البحث، ودرسهم المسألة درساً موضوعياً. ولكن نحن لا نقول ذلك، إذ لا نعتقد أن أحداً يستطيع التخلّي عن عقيدته ليكون محايداً، وبالرغم من هذا نستطيع القول أنّ بحثنا سيكون محايداً، لسبب وجيه وبسيط، وهو أنّنا نتكلّم بلسان عليّ بن أبي طالب عليه السّلام، وذلك من خلال نهج البلاغة، والرأي في عليّ عليه السّلام الذي يعترف به كافّة المسلمين أنه مع الحقّ والحقّ معه، ولذا فإنه الطّرف الوحيد الذي يمكن إفتراضه محايداً، فالحقّ لا يميل الى أحدٍ سوى الحقّ.

وبعد، فنسأل الله سبحانه أن يتقبّل منّا هذا العمل، ويوفّقنا لإستكمال هذه السلسلة من دراسة نظريات نهج البلاغة، والتي بدأناها «بالفلسفة الإلهية في نهج البلاغة».

كتابنا المقبل سيتناول موضوع «الطبقات الاجتماعية في نهج البلاغة» إن شاء الله تعالى، إنه حسبنا ونعم الوكيل.

علي الشَّيخ سليمان يحفوفي

بيروت، ١٩٨٠

الفصل الأول: الخلافة والخلفاء

ضرورة الخلافة

الإنسان كائن إجتماعي بطبعه، بمعنى أنه لا يستطيع العيش منفرداً، بل يميل دائماً نحو التجمع، وهذا الميل غريزة متأصلة فيه. وإذا ما وجد التجمع الإنساني وجدت معه العلاقات الإجتماعية، ووجد النشاط الإجتماعي والحركة الإجتماعية، وذلك كله يستلزم بشكل أكيد وجود سلطة مهمتها تنظيم تلك العلاقات والنشاطات، وإلا فإن تصادمها أمر محتم لا بد منه، لأن مصالح الأفراد تتعارض كثيراً فيما بينها.

وضرورة السلطة وحتमितها أمر يقرّه الإمام عليّ عليه السلام، فنراه يقول:

لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَبْلُغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ (خطبة ٤٠)

وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النُّظَامِ (١) مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنْ انْقَطَعَ النُّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَدَافِيرِهِ أَبَدًا (خطبة ١٤٦)

السُّلْطَانُ وَزَعَاةُ (٢) اللَّهِ فِي أَرْضِهِ (حكمة ٣٢٣)

والمجتمع العربي الجاهلي يحتاج الى تلك السلطة كأي مجتمع آخر، ولعله يكون أحوج من غيره اليها، حيث أن من خصائص بيئة البادية التي وُجد فيها، الدعوة الى التحرر والإنفلات من القيود التي تفرضها الحياة الإجتماعية.

وعندما جاء الإسلام كان الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم هو الممثل الأعلى لتلك السلطة، فالرسالة السماوية التي جاء بها كانت تفرض عليه أن يمسك بيده سلطتين معاً، سلطة التشريع وسلطة التنفيذ، فتشريع الأحكام والقوانين كان يسير جنباً الى جنب مع تنفيذها، فالإسلام لم يكن يكفي بتشريع الأحكام وإبلاغها الى الناس، بل كان يراقب تنفيذها عن كثب، وقد أعطى الصلاحية بذلك للنبي المشرع صلى الله عليه وآله وسلم فكان يرمم ويجلد ويقطع. ولعل من أقبح الافتراءات على الإسلام تفسيره بأنه عبارة عن مجموعة من الأخلاقيات، وبعض الأحكام التي تعنى

(١) النظام: السُّلْكُ ينظم فيه الخرز

(٢) الوَزَعَةُ بالتحريك: جمع وازع، وهو الحاكم يمنع من مخالفة الشريعة

بتنظيم علاقة الإنسان بربه، وليس فيه وراء ذلك شيء، فأمر الحياة والمجتمع ليس للإسلام أية علاقة بها.

والحق أن الإسلام لم يهمل شيئاً من أمور الحياة، بل إنه وضع القوانين التي تنظم حياة الإنسان وترافقه منذ ولادته وحتى وفاته. فالقوانين التي تنظم علاقة الإنسان بربه هي جزء مما جاء به الإسلام، إذ ينضم إليها قوانين تنظم علاقة الناس فيما بينهم، فالحقوق والعلاقات الاجتماعية وكل مواضيع الحياة، قد رسم الإسلام لها خطوطها العريضة، جنباً إلى جنب مع قوانين العبادات وعلاقة الإنسان بخالقه.

فالإسلام إذن جاء لتنظيم أمور الناس الدينية والدنيوية، والنبى صلى الله عليه وآله وسلم قد جمع في شخصه السلطتين الدينية والدنيوية، وهاتان السلطانان تنتقلان معاً من بعده إلى خليفته، وهذا يعني أن دور الخليفة متمم لدور النبى، كما أن الخلافة دورها متمم للنبوّة. صحيح أن التشريع قد انتهى بوفاة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولكن هذا لا يعني أن مجتمع التوحيد الذي أراده والذي حمل رايته طوال مدة حياته، قد تحقّق وكملت أهدافه قبل وفاته، فهذا أمر يحتاج تحقيقه إلى فترة زمنية أطول بكثير من المدة التي أتىح له أن يحيها، فكان لا بدّ من ترك إكمال تحقيق هذا الهدف بين أيدي أمينة تتحمّل مسؤولية السير بهذا الهدف في طريقه الصحيح. وهذا هو دور الخليفة أو الإمام، وقد عبّر عليه السّلام عن أهمية هذا الدور بقوله:

وَإِنَّمَا الْإِمَامَةُ قُوَّامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ (خطبة ١٥٢)

شروط الخليفة

وإذ قلنا أن دور الخليفة هو إمتداد لدور المستخلف - الذي هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم - كان من الواجب أن يكون مُعداً إعداداً خاصاً من أجل القيام بهذا الدور الهام، فيجب أن يكون مستوعباً للرسالة السماوية بشكل واضح وأكيد، حتى يستطيع الحفاظ على ما إنتمن عليه، وحيث أنّه قدوة للمسلمين ومحط أنظارهم وجب أن يكون معصوماً عن كل خطأ أو زلل، في القول والفعل، هذا بالإضافة إلى تحلّيه بأكمل عقيدة وأكرم الأخلاق.

وفيما يلي نستعرض كلمات الإمام عليه السّلام التي يحدّد بها شروط الخليفة، يقول عليه السّلام:

لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالْذَّمَاءِ وَالْمَغَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ (١) وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْجَائِفُ لِلدُّوَلِ (٢) فَيَتَّخِذَ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ (٣) وَلَا الْمَعْطَلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ (خطبة ١٣١)

(١) النهمة بفتح النون وسكون الهاء: إفراط الشهوة والمبالغة في الحرص.

(٢) الدّول جمع دولة بالضم: هي المال، لانه يُتداول أي ينقل من يد ليد

(٣) المقاطع: الحدود التي عينها الله لها.

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ (١) وَلَا يُضَارِعُ (٢) وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ (حكمة ١٠٥)

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعُ (٣) بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ.
(خطبة ٢٠٩)

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصِّدْرِ. (حكمة ١٦٦)

هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين، متحلّياً بأحسن صفات الكمال وكرائم الأخلاق، لأن مهمته التي نُصِّب لأجلها ليست بالشيء الهين، فهو مؤتمن على الأموال والأنفس والأعراض، أي أعز ما يملك الإنسان في هذه الدنيا. فيجب أن لا يكون بخيلاً وإلا لَصَبَتْ نفسه الى الأموال التي انثمن عليها فيكون في ذلك ضياعها. وبطبيعة الحال يجب أن يكون الخليفة عالماً بأمور الدين والدنيا لأنه المرجع الأوّل والأخير لعامة المسلمين، وهو المعلّم الأوّل لهم، فلو كان جاهلاً بالأمور لكان في ذلك ضلال رعيته وضياعهم.

وطبيعة المنصب الذي يتولاه الخليفة تفرض عليه أن يكون رحب الصدر ودوداً ووصولاً لأن حياته مع الآخرين ولهم، فلو كان جافاً غليظاً لانفضوا من حوله وتركوه، وبذلك تنعدم الفائدة من وجوده.

ولعل من أهم المقومات التي يتّصف بها المتولّي لمنصب الخلافة، أن يكون زاهداً فيها، غير متمسك بها إلا من أجل إقامة الحقّ ودفع الباطل، وإعمار دين الله، وليس عنده من وراء ذلك مآرب خاص أو شخصي، وهذا كان حال الإمام عليّ عليه السّلام القائل بصدق مشيراً الى النعل التي يحتذيها:

وَاللَّهِ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا، أَوْ أَدْفَعُ بَاطِلًا. (خطبة ٣٣)

فلو كان همّه منحصراً في تولّي المنصب من أجل نفسه، لبذل جهده من أجل تدعيمه وتثبيتته بشتى الطرق الممكنة، حتى لو اضطرّه ذلك أن يزيغ عن الحقّ، وينحرف عن جادة الصّواب و يأخذ في تأليف قلوب بعض الناس الذين في أيديهم تدعيم منصبه أو القضاء عليه، دون الالتفات الى من سواهم، كما فعل عثمان.

والتّقوى هي أساس كلّ عمل صالح، فالخليفة يجب أن يكون متّقياً لله، لا تأخذه في دين الله لومة لائم، فلا يُصَانِعُ وَلَا يُضَارِعُ، فالباطل لا يصبح عنده حقاً أبداً، والحقُّ حقٌّ عنده مهما حدث وإلا أهلك الأمة.

(١) لا يُصَانِعُ أَي: لا يداري في الحق

(٢) المُضَارِعَةُ: المشابهة، والمعنى أنه لا يتشبه في عمله بالمبطلين.

(٣) يَتَّبِعُ: يهيج به الالم فيهلكه.

تعيين الخليفة

بعد أن عرفنا أهمية منصب الخلافة والدور الذي يشغله الخليفة، كان من الضروري أن نتكلم عن كيفية تعيين الخليفة، وهذه المسألة من المسائل التي دار حولها جدال عنيف بين المسلمين والتي إحتلت مركز الصدارة طيلة قرون عديدة. ولعل الإحتمالات الواردة، أو التي طُرحت عن كيفية تعيين الخليفة، ثلاث:

الأول: أن يكون النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أهمل أمر الإستخلاف من بعده إهمالاً تاماً، وكان هذا الأمر لا يعنيه.

الثاني: أن يكون صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أوضح للمسلمين الطريق الواجب عليهم سلوكه من أجل تعيين الخليفة، من دون تسمية شخص معين لذلك.

الثالث: أن يكون قد نصَّ على الخليفة من بعده نصاً صريحاً.

الإهمال وتبريره

أما الرأي الأول القائل بأن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أهمل أمر الإستخلاف من بعده إهمالاً تاماً، فقد إنقسم القائلون به في مقام تبرير هذا الإهمال الى قسمين:

القسم الأول، يرى أن الهدف من بعثة النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم هو تبليغ رسالة السماء وتطبيق شريعة الإسلام على الأرض، وكل ما سوى ذلك ليس من إختصاصه، ومن الواضح أن تعيين الخليفة هو من أمور الدنيا فلا يكون داخلاً في مهمته. والحق أن تعيين الخليفة يعني تنظيم أمور الحكم كما يعني تطبيق أحكام السماء، وذلك من صميم إهتمامات النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم وقد سبق وقلنا أن دور الخليفة متمم لدور المستخلف الذي هو النبي، فالخليفة مهمته ليست مقتصرة على الأمور الدنيوية، بل أنه في الوقت نفسه وصيٌّ على الرسالة ومسؤول عن الحفاظ عليها.

القسم الثاني، يرى أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أدرك بنظره الثاقب أن المجتمع في تطوّر دائم، تبعاً لتطور الحياة والمجتمع، لذلك لم يشأ أن يقيد الناس بنظام معين للحكم، وإلا أصبحوا ملزمين به مهما تغيرت الأحوال والأزمان، وحينئذ لن يتمكنوا من مواكبة التطورات والتغيرات. ونجيب هؤلاء أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان بمقدوره أن يعالج مشكلة الحكم بالرغم من تطوّر الحياة، كما عالج سائر مشاكل الحياة الإقتصادية والإجتماعية. فبالرغم من تطور العلاقات بين البشر منذ تاريخ الرسالة وحتى اليوم، فإن الإسلام قد عالج كل المشاكل الناجمة عن تلك التطورات لأن عناصر الأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين:

الأول: عناصر ثابتة، وهي المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وهذه باقية على حالها في شتى الظروف والأحوال

وليس لأحد أن يبذل أو يغير فيها.

والثاني: عناصر متحركة، وهي التي تواكب التطورات الحادثة فتعطي الاجابة عنها. وهذه العناصر مستمدة من العناصر الثابتة، فمهما تطورت العلاقات الإجتماعية والإقتصادية فإن الإسلام قادر على مواكبتها بواسطة هذا القسم من العناصر.

فكما هنا كذلك هناك. أي ان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان بمقدوره أن يضع بعض التشريعات التي تنظم أمور الحكم في ذلك العصر، ولكنها تكون مرنة وتحمل أسباب تطورها، فيكون بمقدورها أن تستمر في تنظيم أمور الحكم مهما تغيرت الظروف والأحوال.

فنستطيع أن نستخلص من ذلك أن الإهمال الذي افترضناه أولاً لا يمكن تبريره بوجه من الوجوه. ونضيف الى ما تقدم أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم كان عالماً بما تسببه الخلافة من بعده من فتن، والأحاديث التي وردت عنه كثيرة، لهذا لا بدّ وأن نفترض أنه قد وضع حلاً يجنب أمته النزاع والإختلاف، فمسؤوليته تجاه الرّسالة التي بُعث بها تتطلّب منه أن يحافظ عليها حتى بعد وفاته، لأنها ليست مقتصرة على مدة حياته بل هي لكل العصور. وقد كان صَلَّى الله عليه وآله وسلم عندما يذهب لغزوةٍ ما، لا يطمئنّ باله على المدينة حتى يستخلف عليها، فهل يُعقل أن يترك أمته باكملها دون استخلاف؟

مفخرة في التشريع

أصحاب الرأي الثاني في كيفية تعيين الخليفة يذهبون الى أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أوضح للمسلمين الطريق الواجب عليهم إتخاذه من أجل تعيين الخليفة. وهذا الطريق هو إجتماع الأمة، فإذا ما اتفق المسلمون على شخص ما، وسمّوه لمنصب الخلافة فإنه يكون المستحقّ لهذا المنصب.

وقد قال أصحاب هذا الرأي أن من مفاخر الإسلام أن يكون أول من ابتكر هذه الطريقة لتعيين الحاكم، إذ أنّ آخر ما توصلت اليه التشريعات الحديثة من أجل تعيين الحاكم هي بالإقتراع، الذي يشبه الى حدّ بعيد ما يذهب اليه أصحاب هذا الرأي، فمن مفاخر الإسلام إذا أن يكون قد سبق المدنيّات الحديثة بقرون عديدة في تشريع هذا النوع من الديمقراطية في الحكم.

ولكن قبل أن نُؤخّذ ببريق هذه المفخرة، نرى من الواجب أن نبحت في ماهيتها بدقّة، لنرى بعد ذلك مدى مشروعيتها، ومدى صحّة القول أن الاسلام قد جاء بها وسبق اليها.

إن تشريع الإنتخاب والإقتراع من أجل تعيين الحاكم أو الخليفة، إنما مرجعه الى تحكيم رأي الأكثرية من الناس، إذ من الواضح أن البشر يختلفون في عواطفهم وآرائهم وأذواقهم، بحيث يستحيل إتفاق الجميع على رأي واحد، أو شخص

واحد يعتبرونه حاكما عليهم.

نعم، من مبتكرات العصر الحديث أن تجري الانتخابات من أجل تحديد رأي الأكثرية من الناس، ثم العمل على رأيها بالاستناد الى سلطة قوية تتمكن من فرض رأي الأكثرية على الجميع وإسكات الأقلية وإخضاعها. فعندما يقال أن هذا الحاكم قد اختاره الشعب، فهذا لا يعني أبدا أن الشعب بجميع أفراده وطبقاته قد اختاره، لأن هذا الاتفاق من الجميع شبه مستحيل كما قلنا، نعم الأكثرية من الناس هي التي إختارته وإنتخبته، وأنفذت هذه الاكثرية رغبتها، وأسكتت الأقلية الرافضة استناداً الى السلطة المختصة.

والآن، بعد أن فهمنا كيفية تعيين الحاكم بالانتخاب والاقتراع، نعود لنتساءل: هل أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد وضع فعلا قانونا لتعيين الخليفة يشبه الانتخاب الذي ابتكره العصر الحديث؟

بالطبع لا، فلم يسمع عن النبي أبدا أنه قال: من إختارته الأكثرية من الناس ليكون خليفة فهو الخليفة. نعم يحاول البعض - كأصحاب الرأي الثاني - أن يُثبت أنه صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أوكل أمر تعيين الخليفة الى اختيار الأمة. ولكن هذا معناه اتفاق الأمة جمعاء، وقد قلنا باستحالة مثل هذا الاتفاق، حتى أبو بكر وعليّ عليه السلام - الوحيدان اللذان تم تعيينهما من قبل الناس - لم يكن الإتفاق عليهما تاما من جميع المسلمين، ومن هنا يظهر بطلان هذا الرأي ايضا، وحينئذ لا يبقى أمامنا سوى الرأي الثالث، فلنبحث عن مدى معقوليته.

الرأي الصّواب

الرأي الثالث مفاده أن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم قد أوصى بنص صريح على الخليفة من بعده، فبالإضافة الى السنّة المستفيضة الواردة عن النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم في تعيين الخليفة من بعده، يمكن الإستدلال أيضا ببعض الشواهد التاريخية الدالة على ذلك.

لو عدنا الى صبيحة ذلك اليوم حين اجتمع المهاجرون والأنصار يتداولون في أمر تعيين خليفة لنبيهم الذي فارقهم منذ مدة وجيزة تُحسب بالساعات، يحدثنا التاريخ أنه بعد أن ارتفعت أصوات القوم وبدأ الخلاف يظهر بينهم، قام عمر لينهي الجّدال ويختتم الجلسة، فصاح بصوته الجمهوري: «إبسط يدك يا أبا بكر» فبسط أبو بكر يده، فبايعه عمر وهو يقول: «ألم يأمرك النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم أن تصلي انت يا ابا بكر بالمسلمين؟ فانت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منّا جميعا»

وهكذا تم الأمر لأبي بكر. ولكن يحق لنا أن نتساءل: كيف فعلت هذه الكلمات الموجزة هذا الفعل السّاحر؟ ومن أين جاءت هذه الثقة لعمر بمفعول هذه الكلمات وتأثيرها، بحيث رأيناها يرافق هذه الكلمات بأن يمد يده بالمبايعه؟ ثم الى ماذا تشير موافقة أبو بكر على دعوة عمر إياه، بحيث مدّ يده دون تردّد؟ وعلام يشير أيضا سكوت القوم أمام هذه الكلمات وسقوط ما بأيديهم؟

لا نجد جواباً لكل هذه الاسئلة إلا أن نفترض أن الجو العام المسيطر على هذه الجلسة، هو أن الخلافة إمتداد طبيعي للنبوّة، ف جاء عمر ليذكّرهم بهذه العلاقة التي لا يستطيعون إنكارها، ثم ربط كل ذلك بتقديم النبي لأبي بكر ليُفهمهم بأولويته، وحيث أنه لم تكن عندهم هذه الدقة ليفصلوا بين العلاقة المرتكزة في أذهانهم وبين النتيجة التي أرادها عمر، بحيث لم يستطيعوا أن يؤكدوا على الأولى وينفوا الثانية، فقد وافقوا على الأمرين معاً، وسلّموا بإستدلال عمر بأكمله. وهذا الإرتكاز الحاصل لديهم بعلاقة النبوّة بالخلافة له تفسير واحد، وهو إفتراض وجود نصّ من النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم على الخليفة من بعده، فينشأ عن هذه الوصية شعور بأن الخلافة ليست شيئاً منفصلاً عن النبوّة.

والى هنا نكون قد توصلنا الى نتيجة مهمة، وهي أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يغادر هذه الدنيا إلا بعد أن أوصى على الشخص الذي يتولى خلافته. ولكن البحث لا ينتهي هنا، فإن الأمر الذي لا يقل أهمية هو أن نحدّد هذا الشخص الموصى له ونسميه. وهو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

الفصل الثاني: لمن كانت الوصيّة؟

الذين يعترفون بوجود الوصيّة من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يحصرونها بين شخصين، قسم منهم يدّعي كونها في أبي بكر، والقسم الآخر يدّعيها للإمام عليّ عليه السّلام، فأيّ الفريقين أحق؟

الإشارات المفيدة

لعلّ أهم ما يستدل به القائلون بالنّص على أبي بكر، هو تقديمه للصلاة في مرض النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي توفي فيه، فيربطون بين تقديمه للصلاة وبين الوصيّة له بالخلافة من بعده. ويستدلون على أولويته بالخلافة أيضاً بأن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد أقفل جميع الأبواب المؤدية الى المسجد ما عدا باب أبي بكر. والى غير ذلك من المروي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث يعتبرون في كل ذلك إشارات واضحة الى إستخلافه.

ولن نناقش هنا في مدى صحة هذه الروايات، فمع فرض التسليم بصحة نسبتها الى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، نريد أن نسأل هؤلاء: كيف استفادوا إستخلاف أبي بكر من أمثال هذه الروايات والاشارات، ولم يستفيدوا إستخلاف علي بن ابي طالب عليه السّلام من أمثال حديث المؤاخاة حيث يقول صلّى الله عليه وآله وسلّم لعليّ عليه السّلام: «يا عليّ انت منّي بمنزلة هارون من موسى» أو من قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوم الغدير: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» والى غير ذلك من النصوص الصريحة في إستخلاف علي عليه السّلام؟

والسؤال الآخر هو، لماذا لم يستدل ابو بكر بنفسه على أحقيّته بالخلافة عن طريق هذه الأحاديث؟ ففي إجتماع السّقيفة الذي قرّر مصير الخلافة، كان كل طرف يحاول جرّ الأمر الى نفسه، ويستشهد لذلك بأوهن الأدلّة، فكيف يغفل أبو بكر عن هذا الدليل؟ بل انا نراه يقدّم أحد صاحبيه - عمر وأبا عبيدة - حيث قال «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين»، فلو كان هناك نصّ عليه لما أبعد نفسه واقترح أحد صاحبيه، ولو كانت هذه الأحاديث المتقدمة موجودة فعلاً لاستدلّ بها.

والذي نراه أن هذه الأحاديث بمجملها موضوعة، وُضعت بعد يوم السّقيفة، وذلك لتصحيح بيعة أبي بكر، حيث رأى البعض أن الاستدلال على صحة بيعته بإجماع المسلمين لم يعد يجدي، إذ ظهر للجميع أنّ كثرة من الصحابة الذين لهم اعتبارهم لم يبايعوا، ولذا لجأ هذا البعض الى وضع هذه الأحاديث للإستجداد بها، وقد قلنا أنّه حتى مع فرض قبول صحتها فهي لا تدل على الإستخلاف بشكل صحيح.

ونضيف الى كل ذلك أن أبا بكر نفسه كان ينفي أمر الإستخلاف من النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث ورد عنه

أنه قبيل وفاته كان يتحسّر على أشياء وأشياء لأنه لم يسأل النبي عنها، ومن تلك الأشياء هو سؤاله عن الخليفة من بعده، من يكون؟ (١)

النص الصريح

وأما القائلون بالنص على علي بن أبي طالب، فإنهم يستدلون بالكثير الكثير من الروايات والآيات القرآنية، التي تدلّ بشكل واضح لا إجمال فيه على النص على خلفته. ولكن بالرغم من وضوح دلالتها فإن البعض يحاول صرفها عن مدلولها الحقيقي، وذلك بتأويلات بعيدة عن الواقع. ونحن لن نطيل هنا بذكرها ومناقشة ما أورد عليها، وإنما نكتفي بإعطاء مثال على كل ذلك.

غدير خم، مكان مشهور تاريخياً. ومرجع شهرته يعود إلى ذلك اليوم الذي إستوقف فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه في طريق عودته وإياهم من حجة الوداع، «وقام النبي (صلى الله عليه وآله) خطيباً وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: أأستأذن من أولي المؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله (صلى الله عليه وآله). قال: فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» (٢)

فهذا الحديث المتواتر، هو من النصوص الصريحة على خلافة علي عليه السلام، ولكن مع ذلك جاء من يطعن به، لا من حيث سنده، فقد ثبت صحته عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدى الجميع، ولكن من حيث دلالاته، حيث فسّر كلمة «المولى» التي جاءت في كلام النبي، بمعنى الناصر والمحب. ولا ندري كيف يقنعون أنفسهم بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد وقف على مائة ألف من أصحابه، وفي حرّ الهجير، ليقول لهم: إن علياً محب وناصر لكم؟

وباقى الأحاديث الواردة في إستخلاف علي عليه السلام هي كهذا الحديث من الوضوح، والنقض الذي وُضع عليها هو من الوهن كهذا النقص، ولذا لن نطيل بإستعراضها، خاصة مع وجود الكتب الكثيرة التي تناولتها. ولكن نريد أن نشير إلى أن بعض الصحابة قد فهموا من هذه الأحاديث النصّ على علي عليه السلام، هذا على الأقل ما تدل عليه الشواهد التاريخية.

فمن ذلك ما ورد عن أبي قحافة، عندما أرسل إليه ابنه «أبو بكر» كتاباً يعلمه فيه بمبايعة الناس له بعد وفاة النبي، فلما قرأ الكتاب قال للرسول: ما منعكم من عليّ؟ قال: هو حدّث السنن، وقد أكثر القتل في قريش وغيرها، وأبو بكر أسنّ منه، قال أبو قحافة: إذا كان الأمر بالسنن فأنا أحقّ من أبي بكر، لقد ظلموا عليّاً حقه، وقد بايع له النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمرنا ببيعته.

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ - ص ٤٧

(٢) تاريخ اليعقوبي جزء ٢ صفحة ١١٢

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة، فقال:

لما بويع ابو بكر، أقبلت الجماعة التي بايعته تزقه زفاً الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما كان آخر النهار إفترقوا الى منازلهم. فاجتمع قوم من الأنصار وقوم من المهاجرين، فتعاتبوا فيما بينهم، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا معشر الأنصار إنكم وان كنتم أولي فضلٍ ونصرٍ وسابقة، فإنه ليس فيكم مثل أبي بكر ولا عمر ولا علي ولا أبي عبيدة. قال زيد بن أرقم: إننا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن، وإن منّا لسيد الأنصار سعد بن عباد، ومنّا من أمر الله ورسوله أن يقرئه السلام و أن يأخذ عنه القرآن ، ابي بن كعب، ومنّا من يجيء يوم القيامة أمام العلماء معاذ بن جبل، ومنّا من أمضى رسول الله شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، وإنّا لنعلم أن ممّن سميت من قريش من إذا طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد «علي بن ابي طالب» (١).

ولكن علياً عليه السلام كان في شغل عن هذا الأمر بتجهيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم. وهذه المحاورة بين المهاجرين والأنصار كانت من قبيل تعاتب الأجابة، وليست نزاعاً على الخلافة لأنها قد تمت وعقدت لأبي بكر. ونحن نرى كيف ان المهاجرين لم يستطيعوا دون أن يوردوا اسم علي عليه السلام بين الأسماء التي ذكروها من المرشحين للخلافة، وكذلك الأنصار حيث ردوا عليهم بأن من عندهم يوازي في الفضل والأهلية من عند المهاجرين لولا شخص واحد هو علي بن ابي طالب. ولا نجد تبريراً لكل ما ورد من الطرفين إلا لأن في أذهانهم إستخلاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم له.

ومن الشواهد أيضاً ما يذكره ابن أبي الحديد: «مرّ المغيرة بن شعبة بأبي بكر وعمر وهما جالسان على باب النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قبض، فقال: ما يقعدكما؟ قالاً: ننتظر هذا الرجل - يعنيان علياً - يخرج فنبايعه. فيقول المغيرة: أتريدون ان تنتظروا حبل الحبل من أهل البيت؟ وسعوها في قريش تتسع» (٢)

وهذه الرواية تدل بشكل واضح ايضاً على ان ابا بكر وعمر يعترفان بحق علي في الخلافة، وإلا فما معنى إنتظارهما على بابيه ليبايعاه؟ وتدلل ايضاً على أن الإرتكاز الذي في ذهن المغيرة هو أن الخلافة في بني هاشم خاصة، وعند الإمام عليه السلام تحديداً، ولذلك يقترح توسعتها لتكون في قريش عامة، ولذا يقول عليه السلام:

إِنَّ الْأئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوَلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ (خطبة ١٤٤)

فنستفيد من كل هذه الشواهد وغيرها ان الصحابة بأجمعهم كانوا يعرفون بوصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي، ويكفيها للتأكد من هذا الأمر، كلام الإمام عليه السلام حيث يقول:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ١٩

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٤٣

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا (خطبة ٣)

فهذا إتهام صريح لأبي بكر بمعرفته بأحقية الإمام عليه السلام بالخلافة، ومن كلامه أيضا في إتهام الصحابة في ذلك، ما ورد من مخاطبته لهم لما عزموا على بيعة عثمان:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ (خطبة ٧٣)

وهناك مواضع أخرى كثيرة في نهج البلاغة يذكر فيها الإمام عليه السلام أحقيته بالخلافة، ويتظلم من قومه لسلبهم إياه، فمن ذلك قوله:

وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي (١) دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَعْتُهُ (٢) بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ (خطبة ١٧٢)

ويحدث عليه السلام عن قريش فيقول:

وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي (خطبة ١٧٢)

فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي، (٣) فَقَدْ قَطَعُوا رَحْمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي (كتاب ٣٦)

ومما صرح به عليه السلام عن أحقيته بالخلافة قوله:

فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي (٤) وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعَجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحَّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ (كتاب ٦٢)

وبطبيعة الحال، فإن الإمام عليه السلام لم يكن ليُدَّعي أحقيته بالخلافة، ويتظلم من قومه لأنهم سلبوه حقه، لولا وجود النص عليه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والوصية له. وهو يخبرنا عن هذه الوصية في معرض حديثه عن أهل البيت حيث يقول:

(١) ضَرَبَ الْوَجْهَ: كناية عن الرد والمنع.

(٢) قرعته بالحجة: من قرعه بالعصا ضربه بها.

(٣) الجَوَازِي: جمع جَازِيَة وهي النفس التي تجزي، كناية عن المكافأة، وقوله: جزأتهم الجوازي، دعاء عليهم بالجزاء على أعمالهم.

(٤) الرُّوع بضم الراء: القلب، أو موضع الرُّوع منه بفتح الراء أي الفزع.

لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ (خطبة ٢)

والسؤال الذي يُطرح هنا: إذا كانت الخلافة من حق الإمام عليّ عليه السّلام بوصية النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم له، وكان الصحابة جميعاً يعرفون ذلك، فلماذا أراد الآخرون أبعاده عليه السّلام عن الخلافة، وأبعادها عنه؟ جواب ذلك هو موضوع بحثنا في الفصل الثالث.

الفصل الثالث:

المؤامرة الكبرى

الأحداث الخطيرة

عندما تُذكر الخلافة، يُتبادر إلى الذهن فوراً ذلك اليوم الصّيفي من السنة الحادية عشرة للهجرة. في ذلك اليوم، مكانان من مدينة الرسول صَلَّى الله عليه وآله وسلّم كانا يشهدان أحداثاً خطيرة كان لها أثرها الكبير على الأمة الإسلامية جمعا.

المكان الأوّل هو منزل الرسول الكريم حيث كان النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلّم قد نفض يديه من هذه الحياة الدنيا، مختتماً سنيناً طويلة من الجهاد والعناء، في سبيل رسالة الإسلام التي جاء بها. إختتم هذه السنين كأبيّ حيّ من الأحياء، فأسلم الرّوح الى بارئها. وكان بجانبه في هذه الأثناء ابن عمه عليّ بن أبي طالب يتولّى تجهيزه لمواراته في مثواه الأخير، لا يهتمّ شيء سوى إنجاز هذا الأمر كما يجب.

ويأتي العباس، عمّ الإمام عليه السّلام، ليقاطعه عن مهمته ويقول له: أمدد يدك أبايعك فيقول الناس: عمّ رسول الله بايع ابن عم الرسول، فلا يختلف عليك إثنان. فيجيبه الإمام عليه السّلام وهو لا يرفع بصره عن الجثمان الكريم: لنا برسول الله يا عم شغل. وما إن خرج العباس حتى دخل ابو سفيان بن حرب عارضاً على الإمام عليه السّلام نفس عرض عمه، فيقول له: يا ابا الحسن، هذا محمد قد مضى الى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فأبسط يدك أبايعك، فإنك لها أهل. فيجيبه الإمام عليه السّلام: يا ابا حنظلة، هذا أمر ليس يخشى مغبة الريث والتمهل.

وهذا الرد من الإمام عليه السّلام يشعّ بالثّقة أنه لا منازع له في حقّه، لذا نراه لا يستعجل الأمور. ولكن أبا سفيان الذي خرج لتوّه، والعبّاس الذي سبقه، يلتقيان في الخارج فيتباحثان الأمر، ويعودان معاً، عسى أن يستطيعا إقناع الإمام عليه السّلام بقبول طلبهما. ولكن جواب الإمام عليه السّلام واحد لا يتغير، «اني أحب أن أصحر بها، وأكره ان أبايع من وراء رتاج» (١)

لقد رفض الإمام عليه السّلام إقتناص البيعة من وراء أظهر المسلمين، فيأبى إلا أن يبايع على رؤوس الأشهاد، مع وثوقه بأن هذا الامر لا يفلت من يديه.

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٤٨

ولكن على ماذا يدل هذا الإصرار من ابي سفيان والعباس على استعجال المبايعة؟ هل كانا يحدسان بوجود مؤامرة تُحاك خيوطها في الظلام لإنتزاع الخلافة من صاحبها الشرعي؟ أم كان ذلك مجرد استعجال للأمور؟ لو اتَّهَمنا ابا سفيان بأنه يريد تسجيل يد بيضاء لدى الإمام عليه السَّلام بطرحه ولاءه له، فبماذا نستطيع تفسير موقف العباس؟ ولم تمض ساعات قليلة حتى جاء الجواب، فبينما كان عليه السَّلام ما يزال مشغولاً بتجهيز النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذ به يسمع تكبير القوم في المسجد وهم يبأيعون أبا بكر، بعد أن تم له الأمر أثر إجتماع السقيفة.

والسقيفة هي المكان الآخر الذي قلنا في أول حديثنا في هذا الفصل، أنه كان يشهد احداثاً خطيرة ذات أثر، فماذا كان يحدث هناك؟

تأمر الأنصار

في سقيفة لبني ساعدة إجتمع الأنصار يحيكون مؤامرتهم لإقتناص الخلافة من أيدي أصحابها الشرعيين. والأنصار كانوا على علم بوصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعليِّ عليه السَّلام فهم الذين نصرُوا النبيِّ وَأَوْوَهُ وَعَاشَوْهُ فِي فترات حياته، فلا يُعقل عدم اطلاعهم على هذا النص، وقد سبق ونقلنا تصريح زيد بن أرقم بألوية عليِّ عليه السَّلام.

وهنا يطرح السؤال السابق نفسه بشدة: لماذا يخالف الأنصار رغبة النبي بعد مماته، بالرغم من جهادهم الصادق بين يديه طيلة حياته؟

الذي نعتقده - في مقام تبرير موقف الانصار - هو أنهم كانوا يحدسون، أو يعلمون بوجود مؤامرة تحاك خيوطها من أجل إبعاد الخلافة عن عليِّ عليه السَّلام، صاحب الحق الشرعي. ويشهد لنا على هذا التبرير أن مدار حديثهم طوال الجلسة كان عن كيفية استدلالهم وتمتين حجَّتهم في مواجهة المهاجرين عندما ينازعونهم أمر الخلافة، ونظرة صغيرة على جدالهم ذلك اليوم توضح هذا الأمر.

قال ابن ابي الحديد في شرحه على النهج، عند الحديث عن إجتماع الأنصار: ثم أنهم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: إن جاءت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وأصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الأولون، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعونا هذا الأمر من بعده؟ فقالت طائفة منهم إذا نقول: منا امير ومنكم امير...الى نهاية الحديث (١)

فلاحظ بوضوح أنهم يهيئون أنفسهم لجدال وإحتجاج مع المهاجرين، ولم يأتوا على سيرة بني هاشم وعليِّ عليه السَّلام أبداً، وما ذلك الا لأنهم كانوا يستشّمون رائحة الطّمع من المهاجرين للإستيلاء على الخلافة، تماماً كما كان العباس و ابو سفيان متأكّدان من ذلك حين جاءا يصرّان على الإمام عليه السَّلام ليقبل مبايعتهما.

وأما كيف حدّس كل هؤلاء بوجود مؤامرة، فالذي نظنه أنّ حدسهم هذا كان وليد ملاحظات عديدة حدثت في المدّة الأخيرة لحياة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، بل في أيامه الأخيرة، إستطاعوا من خلال تجميعها وتنسيقها مع بعضها أن يستنتجوا وجود هذه المؤامرة. فمن تلك الملاحظات التي يمكن أن يكونوا دونوها هي عدم خروج أبي بكر وعمر في بعثة أسامة التي أمر النبيّ جميع الناس بالإلتحاق بها ولكنهما لم يفعلا، وما ذلك إلا لبقيا قرييين من الأحداث المستجدة.

وملاحظة أخرى هي عندما أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بكتف ودواة ليكتب للناس كتاباً لن يضلّوا بعده أبداً، حيث رأوا عُمر ويوافقه آخرون يمتنعون عن إجابة طلب النبيّ لعلمهم أنه سيوصي خطياً بالخلافة لعليّ عليه السّلام. والملاحظة الثالثة هي ثورة عمر على أهل المدينة عندما أخذوا يتناقلون خبر وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأخذ يهدّد بسيفه كل من يقول بأن محمداً قد مات، ولم تهدأ ثأثرته إلا عندما وصل أبو بكر الى المدينة - وقد كان خارجها - حينئذ اطمئن عُمر إلى إن ما رتبّه مع رفيقه سيكون على ما يريدان، فهدأت ثأثرته.

كل هذه الملاحظات، وربما يكون هناك كثير غيرها، كانت كافية لتثير شكوك الأنصار حول وجود المؤامرة التي نتحدث عنها، ولذلك أرادوا بإجتماعهم هذا إستعجال الامور، وجذب الامر نحوهم. فالأنصار في الحقيقة لم يكونوا قد هيئوا أنفسهم لمثل هذا الموقف، إذ لم يكن عندهم طمع سابق بالخلافة، بل الموقف الحالي فرض نفسه عليهم فرضاً، لذلك اجتمعوا للتّدارس في أمرهم وموقفهم المقبل، وعندما أيقنوا أن المهاجرين لن يسمحوا بوصول الخلافة الى عليّ كان عليهم إتخاذ موقف سريع ليمنعوا المهاجرين من الوصول اليها، ودافعهم هو الاتي:

الأنصار، سُمّوا بهذا الإسم لمناصرتهم النبيّ يوم لم يكن له نصير، فحاربوا بين يديه وقتلوا الكثيرين من أعدائه من أهل مكة، ولذلك كانوا يخشون من تولّي المهاجرين الخلافة خوفاً من قيامهم بأخذ ثأرهم القديم منهم. وزاد في تخوّفهم هذا أنهم طالما سمعوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول لهم: «إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثْرَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ» (١)

وقد ظهر تخوّف الانصار هذا في كلام الحباب بن المنذر حيث قال في مناظرته مع المهاجرين يوم السقيفة: «ولكنّا نخاف أن يليها بعدكم من قتلنا أبناءهم وإخوانهم» فاذا كان هذا الجيل من المهاجرين يمنع إيمانه من الأخذ بثأره فمن يضمن لهم الأجيال القادمة ألا تفعل ذلك؟.

وأبو بكر قد أدرك تخوّفهم، لذلك أخذ يطمئنهم فقال: «ليس بعد المهاجرين الأوّلين عندنا بمنزلتهم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء». فأفهمهم بذلك أنّ تخوّفهم في غير محلّه، فان الإمارة سيتولاها المهاجرون الأوّلون، وهؤلاء ليس بينهم وبين الأنصار أي دماء يخشى ثورانها، ومن قبيل الضمانة عينهم في منصب الوزارة، ويعني هذا إطلاعهم على جميع الأمور قبل إبرامها، وهذا ما يشعرهم بالاطمئنان، على ما يُفترض.

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، (٣/١٣٨١)، رقم: (٣٥٨١)، ومسلم في كتاب الإمارة (٣/١٤٧٤)

وحيث شعر الأنصار أن الامر قد خرج من أيديهم عادوا للتمسك بآخر أمل لديهم لإبعاد المهاجرين عن الإستيلاء على الخلافة، فطرحوا اسم علي عليه السلام كأحق الناس بهذا الامر، فقالوا: «لا نبايع الا عليا». فمع وجود علي في منصب الخلافة فانهم لا يخشون شيئاً مما كانوا يتحرزون منه، حيث أنهم يعلمون ان العدل هو الحاكم عند علي فلا يجوز عليهم بحال من الأحوال، وهو على أية حال ليس موتوراً من أحد، بل هو الذي وتر المهاجرين ولوعهم، ولكن الأوان كان قد فات.

إحتجاج الإمام عليه السلام

باغت المهاجرون الأنصار بدخولهم عليهم في إجتماعهم السري تحت السقيفة، وأفسدوا عليهم أمرهم، إذ سرعان ما انقلبت الأمور رأساً على عقب وتمت المبايعة لأبي بكر. ونحن لن ندخل بتفصيل احتجاج كلا الطرفين على الآخر، بل نكتفي بذكر ما جاء على لسان الإمام عليه السلام في نهج البلاغة، من احتجاج على الطرفين معاً، وإبطال ما تمسكوا به، فمن ذلك:

قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة (١) بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير. قال عليه السلام: فهلاً احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام: لو كانت الامارة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم قال: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله. فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة. (خطبة ٦٦)

ويعني بالثمرة أهل البيت كما هو واضح. وفي مكان آخر يقول عليه السلام:

وَاعْبَاهُ! أَتَكُونُ الْخِلَافَةَ بِالصَّحَابَةِ وَلَا تَكُونُ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ؟ وَرَوِي لَهُ شَعْرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى،

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ * فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيَّبُ

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَبْتَ خَصِيمَهُمْ * فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ. (حكمة ١٨٠)

وبذلك يكون عليه السلام قد سدّ عليهم جميع المنافذ، فإنهم إن كانوا احتجوا بأنهم شجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليس هناك من هو أقرب الى النبي من بني هاشم وعلي عليه السلام. وإن كانوا توصلوا الى الخلافة بالشورى، فإن أول من يجب مشاورته وأخذ رأيه هم قرابة النبي وقد كانوا جميعاً ملازمين داره في تلك الاثناء. وفي كتاب للإمام إلى معاوية في مقام الإحتجاج على حقه في جميع الأحوال، كتب عليه السلام:

(١) سقيفة بني ساعدة: اجتمع فيها بعض الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاختيار خليفة له.

وَلَمَّا اخْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَالَجُوا عَلَيْهِمْ
(١) فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ. (كتاب ٢٨)

من المعلوم أن حجة المهاجرين كانت أنهم شجرة رسول الله، وبها تمكنوا من إسكات الأنصار وقطع محاجتهم بأحقيتهم بالخلافة، فلو كانت حجة المهاجرين صحيحة فإن الإمام عليه السلام يتمسك بها لإثبات أحقيته حيث أنه كالثمره، بمعنى أنه أقرب، وإن كانت حجتهم خاطئة فإن احتجاج الأنصار قائم على حاله.

وحيث انتهى عليه السلام من إبطال احتجاج القوم، أخذ في الاحتجاج لنفسه، ليظهر أنه صاحب الحق دون منازع، وجاءهم من طريقين:

الأول: سلك فيه نفس الطريق الذي سلكوه في احتجاجهم، وهو دعوى القرابة، صحيح انه يستنكر عليهم أن تكون الخلافة بالقرابة، ولكنه يلزم الخصم بما ألزم به نفسه فيقول عليه السلام:

أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْإِشْدُونُ بِالرَّسُولِ نَوْطًا (٢) فَإِنَّهَا كَانَتْ
أَثَرَةً (٣) شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ. (خطبة ١٦٢)

وفي كتابه المتقدم الى معاوية، كتب عليه السلام:

فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. (كتاب ٢٨)

وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا
أَخْصُ وَأَقْرَبُ. (خطبة ١٧٢)

الطريق الثاني الذي سلكه الإمام عليه السلام لإثبات حقه، كان بإظهار لياقته وجدارته بهذا المنصب، فهو كان لا يرى أحدا أجدر منه بتوليته فنراه يصف نفسه وأهليته لتوليته بقوله:

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا (٤) فُلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي
السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ. (خطبة ٣)

فهو عليه السلام يشير الى علو مكانته وسمو منزلته وإن كان عند الناس من فضل، فإنما هو مما تدفق من حوضه، فأصابه الناس، ومن كانت هذه منزلته وهذا مقامه كيف يُعقل أن يكون مأمورا ويكون من هو أدون منه أمرا؟

(١) فَلَجُوا عَلَيْهِمْ أَي: ظفروا بهم

(٢) النَّوْطُ بِالْفَتْحِ: التَّعَلُّقُ وَالِاتِّصَاقُ.

(٣) الْأَثَرَةُ: الْإِخْتِصَاصُ بِالشَّيْءِ دُونَ مُسْتَحَقِّهِ.

(٤) تَقَمَّصَهَا: لَبَسَهَا كَالْقَمِيصِ.

من المنطقي ان يكون الوالي خيرا من رعيته حتى يحظى بطاعتهم وإحترامهم.

ولا شك عندنا في أفضلية عليّ عليه السّلام على جميع صحابة النبي، وحتى بعض المصححين لخلافة من سبقه يعترفون بأفضليته، ولكنهم يستدركون قائلين: «لا بأس بأن يتولى المفضول على الفاضل». أي حتى لو كان عليّ هو الأفضل، فلا مانع أن يتولى عليه من هو دونه في ذلك، والإمام عليه السّلام يرفض هذا المنطق من أساسه فيقول:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ (١) شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ (٢) فَإِنْ أَبِي قُوتِلَ. (خطبة ١٧٣)

موقف الإمام عليه السّلام

يأبى بعض الباحثين إلا أن يصوّر لنا الإمام عليه السّلام وكأنه ذلك المُسالِم الوديع، الذي أخذت منه الخلافة ولم يحاول أن يحرّك ساكناً لإظهار أحقيّته بها، بل بايع كما فعل سائر الناس. بينما البعض الآخر - على النقيض من هؤلاء تماماً - يصورونه وكأنه كان ثورة مستمرة على هؤلاء الذين اغتصبوا حقّه، وأنه كان يتحيّن الفرص للانقضاض عليهم، ولذا كان لا بدّ من الوقوف عند هذه النقطة للتعرف على حقيقة موقف الإمام عليه السّلام، كما هو دأبنا في هذا الكتاب نحاول إستيضاح موقفه من خلال كلامه في نهج البلاغة.

ففي كتاب معاوية رداً على كتاب له يعبر الإمام عليه السّلام على ما كان منه، فكتب:

وَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ (٣) حَتَّى أَبَايَعُ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَأَفْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ (٤) فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكَاً فِي دِينِهِ. (كتاب ٢٨)

فالإمام عليه السّلام يعترف بأنه كان يقاد حتى يبايع، ولا ينكر ذلك على معاوية، وهذا يعني رفضه للمبايعة وإستنكاره لها، فالإمام عليه السّلام لم يبايع أبداً الا بعد وفاة فاطمة، أي بعد أشهرٍ من تولي أبي بكرٍ لمنصب الخلافة.

ويروي في كتاب الإمامة والسياسة، رفض الإمام عليه السّلام للمبايعة، فيقول:

انّ عمر طلب من أبي بكر أن يبعث إلى عليّ ليبايع، فأرسل اليه قنفاً فلم يحضر، فطلب عمر أن يرسل اليه ثانياً فأرسل اليه قنفاً أيضاً فلم يحضر، فمضى اليه عمر بنفسه ومعه جماعة، فتكلمت فاطمة، فرقّ لها قوم منهم فرجعوا،

(١) الشغب: تهيج الفساد.

(٢) استُعْتَبَ: طلب منه الرضى بالحق.

(٣) الجمل المخشوش: هو الذي جُعِل في أنفه الخشاش بكسر الخاء وهو ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب لينقاد.

(٤) الغضاضة: النقص.

وبقي عمر ومعه قوم فأخرجوا علياً وذهبوا به الى أبي بكر، وتهدّوه بالقتل إن لم يبايع، فلم يُكرهه أبو بكر على البيعة لمكان فاطمة، فلما توفيت فاطمة بايع مكرهاً.

وطوال الفترة التي استمرّ فيها الإمام عليه السّلام في رفضه للبيعة وكرهه لها، لم يكن يحاول قط تأليب الناس على الخليفة أو نقض بيعته، فمن حق الإمام عليه السّلام أن يكون كارهاً لأمر أولئك الذين غصبوه حقه، وليس يعتذر الى الناس عن ذلك، ولكن أن يكون قد بغى عليهم وحاول تأليب الناس عليهم، فهذا أمر لا يفعله ولا يقبل من أحد ان يقوم به، لان معناه الفتنة التي يرفضها الإمام عليه السّلام ويحاربها.

نعم كل ما فعله الإمام عليه السّلام انه خرج ليلاً ومعه فاطمة والحسن والحسين، فأخذ يطرق أبواب الأصحاب داعياً الى نفسه، مذكراً بعهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

والذي نظنه أن الليل الذي خرج فيه عليه السّلام كان مساء يوم السقيفة حيث أن كثرةً من المهاجرين - كبنّي زهرة وبنّي أمية - كانت غير راضية بعد عن المبايعة، فمن الطبيعي أن يحاول الإمام عليه السّلام كسب تأييد هذه الفئة، ولا نظن أنه قد خرج في غير هذه الليلة، لانه في صباح اليوم التالي كانت البيعة لأبي بكر قد تمّت، ولم يعد بالإمكان نقضها، فليس من المعقول أبداً أن يحاول الإمام عليه السّلام مثل هذا الأمر.

وفيما عدا ذلك لم يذكر أحد أي محاولة للإمام تهدف الى تأليب الناس لصالحه، بل لم يدّع أحد أن الإمام عليه السّلام إنتقد الخفاء بأي شكل من أشكال الانتقاد طيلة فترة حياتهم. نعم بعد أن أصبح هؤلاء في ذمة الله وآلت اليه الخلافة، كانت له شقشقة هدرت ثم قرّت، إنتقد فيها تولى الخفاء للمنصب الذي كان يراه من حقه، وكان ذلك في معرض الترويح عن النفس بعد أن لم تعد تستطيع الاحتمال. فالدّاعي لذلك لم يكن بأي حال من الأحوال من باب المكيدة بالخفاء، وسيأتي الكلام في هذا الأمر.

وقد نستطيع أن نرى عكس ما كان يراه أولئك الذين يدّعون على الإمام عليه السّلام انه كان يحاول تأليب الناس على الخليفة، فهذا أبو سفيان يأتي الإمام عليه السّلام المرة تلو الأخرى محاولاً تحريضه على جهاد القوم ومناهضتهم واعداء إياه بالمساندة، ولكن الإمام عليه السّلام كان يردّه المرة تلو الأخرى، وأخيراً قال له: «أمسك عليك، فأنا رأينا ابا بكر لها اهلاً». وبالطبع فالإمام عليه السّلام يعلم يقيناً أن المؤهل للخلافة هو الذي عينه النبيّ بالنص الصّريح دون سواه، فالأهلية التي أعطها لأبي بكر كانت بمنظار أبي سفيان حيث كان ينظر للخلافة على أنها ملك دنيوي، وسلطان عظيم، وهو لم يعتقد بها أبداً كإمامة وخلافة دينية.

ويروى أن أحد أبناء ابي لهب أنشد شعراً يذكر فيه أحقية الإمام عليه السّلام بالخلافة، وعندما سمع الإمام عليه السّلام بذلك أرسل اليه ونهاه عن العود الى ذلك، قائلاً له: «سلامة الدين أحب الينا من غيره».

والحقيقة أن وضع الإمام عليه السّلام كان وضعاً حرجاً يصعب إتخاذ القرار فيه، فالأنظار كانت كلها متجهة اليه، فسكوته عن حقه كان يعتبره البعض جُبناً وخوفاً، وإحتجاجه بأقلّ كلمة كان البعض الآخر يعتبره طمعاً في الملك

وحرصاً عليه دون الأخذ بعين الإعتبار مصالح المسلمين ككل، وقد حدثنا الإمام عليه السّلام عن صعوبة وضعه بقوله:

فَإِنْ أَقْلُ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمَلِكِ، وَإِنْ أَسْكُتُ يَقُولُوا جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ. (خطبة ٥)

والى هنا نكون قد إنتهينا من استعراض كلمات الإمام حول أحداث السقيفة، وما يتعلق بذلك.

الفصل الرابع:

نقد الخلفاء

لا نجد للإمام في نهج البلاغة أي كلام له ينتقد فيه الخلفاء، سوى الخطبة الشقشقية المعروفة، نعم نستثني من ذلك الخليفة الثالث عثمان فإن الإمام عليه السلام قد انتقده في أكثر من موضع، وعلى أي حال لم يكن عثمان فوق النقد، وقد أكثر الصحابة فيه الطعن، ولعل علياً كان أقلهم في ذلك. ونأتي الآن لذكر موارد النقد التي نجدها في النهج.

النقد على أبي بكر

روى الطبري والبلاذري وغيرهم، أنّ ابا بكر كان يردّد في بعض المناسبات قوله: «أقبلوني فلست بخيركم» وبعضهم يزيد عليها «وعلّي فيكم». والإمام عليه السلام يقف عند مقولة أبي بكر هذه ليقول:

فَيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقْبِلُهَا (١) فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَفَاتِهِ لَشَدَّ مَا تَشَطَّرَا (٢) ضَرَّعَيْهَا.
(خطبة ٣)

وأي شيء أعجب من هذا؟ فإذا كان أبو بكر يعترف بوجود من هو أحقّ منه بالخلافة فكيف يكون له الحقّ أن يُوصي بها من بعده؟ ولكن العجب يزول عندما نعرف أنه انما يفعل ذلك، رداً لجميل عُمر، ولذا يقول الإمام عليه السلام «لشَدَّ ما تَشَطَّرَا ضَرَّعَيْهَا» فهناك إتفاق بين الإثنين أن يساند أحدهما الآخر وتكون الخلافة لأحدهما تلو الآخر، والإمام عليه السلام كان يعلم منذ البداية أنّ الأمر سيؤول إلى عُمر من بعد صاحبه، فليست مناصرته له دون ثمن. يقول المؤرخون: «كان عمر أوّل من بايع ابا بكر فحفظها له». بل أن خلافة أبي بكر لم تكن لتقوم لها قائمة لولا عُمر، فليس من العجب بعد هذا أن يوصي له من بعده.

وذكر ابن أبي الحديد عن عدة مصادر، أنّ عمر خطب الناس ذات يوم فقال: أيها الناس انّ بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد الى مثلها فاقتلوه.

وهذه العبارة طعن صريح في خلافة أبي بكر، على الأقل هذا ما فهمه منها القدماء. يذكر ابن أبي الحديد: كان الشعبي يحدث الناس ويقول: كان في صدر عمر ضبّ على أبي بكر، ولما أنكر عليه بعض من سمع هذا منه، قال له الشعبي: كيف تصنع بالفلتة التي وقى الله شرها؟ أيقول عدوّ في عدوه أكثر من ذلك؟

(١) يَسْتَقْبِلُهَا: يطلب إعفاه منها.

(٢) تَشَطَّرَا ضَرَّعَيْهَا: اقتسماه فأخذ كلّ منهما شطراً، والضرع للناقة كالثدي للمرأة.

والإمام عليه السلام في سياق حديثه عن بيعته يتعرض لكلمة عمر هذه فيقول:

لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ إِيَّايَ فِتْنَةً (١) وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا. (خطبة ٦)

النقد على عمر

وقبل ذكر نقد الإمام عليه السلام على عمر، نذكر ثناءه عليه، فقد قال عليه السلام:

لله بلاء فلان، فَلَقَدْ قَوْمَ (٢) الْأَوْدَ، وَدَاوَى الْعَمَدَ (٣) وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ (٤) ، ذَهَبَ نَقِيَّ الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا، أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ، رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مَتَشَعِّبَةً لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي. (خطبة ٢٢٧)

ونأتي الآن الى موارد الانتقاد عليه. قال ابن ابي حديد في سياق حديثه عن عمر: كان أكابر الصحابة يتحامون ويتفادون من لقائه. وقيل لابن العباس لما أظهر قوله في العول بعد موت عمر - ولم يكن يظهره قبله -: هلا قلت هذا وعمر حي؟ قال: هبته، وكان أمراء مهابا. وروى كثير من الناس أن ابا بكر لما نزل به، دعى عبد الرحمن بن عوف، فقال: أخبرني عن عمر. فقال: إنه افضل من رأيت، إلا أن فيه غلظة.

نستفيد من كل ما تقدم ومن غيره مما لم ننقله، ان عمر كان فظاً غليظاً، ولكن مع ذلك نرى أبا بكر يستخلفه على رقاب المسلمين، والإمام عليه السلام ينتقده على ذلك فيقول:

فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ خَشْنَاءَ، يَغْلُظُ كَلْمَهَا (٥) وَيَكْثُرُ الْعِثَارُ فِيهَا وَالْأَعْتَادُ مِنْهَا. (خطبة ٣)

وهذا النقد في الحقيقة هو على أبي بكر وعمر معا، فالأول يُسَجَّلُ عليه أنه ما كان يجب أن يوَلِّي شخصاً كهذا على المسلمين، والثاني يُنتقد عليه انه كان يجب أن يكون رقيقاً لطيفاً، كما يقتضي منصب الخلافة.

يشير عليه السلام الى الأخطاء الكثيرة التي كان يرتكبها عمر، ثم سرعان ما يعترف بها ويعتذر عنها، وقد تواتر عن عمر قوله: «كل الناس أفتة من عمر»، وفي مناسبة خاصة زاد عليها قوله «حتى ربّات الحجال». كان ذلك عندما خطب الناس في أحد الايام وقال: لا يبلغني ان امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي الا ارتجعت ذلك منها.

(١) الفلّنة: الامر يقع عن غير روية ولا تدبر.

(٢) قَوْمَ الْأَوْدَ: عدل الاعوجاج.

(٣) العمد بالتحريك: العلة

(٤) خَلَّفَ الفتنه: تركها خلفاً، لاهو أدركها ولا هي أدركته.

(٥) كَلْمَهَا: جرحها، كأنه يقول: خشونتها تجرح جرحاً غليظاً.

فقلت له امرأة: ما جعل الله لك ذلك، انه تعالى يقول: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» (١). فقال: كل الناس أفتقه من عُمر حتى ربّات الحجال، ألا تعجبون من إمام أخطأ وامرأة أصابت، فاضلت أمامكم ففاضلته.

ولعلّ أهم إنتقاد يُوجّه لعُمر، هو في إختراعه لقصة الشورى. ذكر ابن أبي الحديد، أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة وعلم انه ميّت لا محالة قال: ان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مات وهو راضٍ عن هذه الستّة من قريش: عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن، ورأيت ان أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم، ثم قال ادعوهم لي. فدعوهم، فدخلوا عليه وهو ملقى على فراشه يجود بنفسه، فنظر اليهم وقال: أكلكم يطمع في الخلافة بعدي؟ فوجموا، فقال لهم ثانية ذلك فأجابه الزبير قائلا: ما الذي يبعدنا منها وليتها انت فقمت بها ولسنا دونك في قريش ولا في السابقة والقراية، فقال عمر: أفلا أخبركم عن أنفسكم؟ فقالوا: فإنا لو استعفيناك لم تعفنا.

حينذاك خاطبهم بقوله: أما انت يا زبير فوقعة لقس، مؤمن الرضا، كافر الغضب، يوماً إنسان و يوماً شيطان، لعلها لو أفضت اليك ظلت قومك تلاطم البطحاء على مدّ من شعير، أفرأيت إن إفضت اليك فليت شعري من يكون للناس يوم تكون شيطاناً، ومن يكون يوم تغضب إماماً، وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الأمة وانت على هذه الصفة.

ثم أقبل على طلحة قائلا: أقول أم أسكت؟ قال: قل فانك لا تقول من الخير شيئاً، قال: أما اني أعرفك منذ أصيبت أصبعك يوم أحد، والباد الذي حدث لك، لقد مات رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ساخطاً على الكلمة التي قتلها يوم أنزلت آية الحجاب (٢)

ثم أقبل على سعد بن أبي وقاص قائلا: أما انت صاحب منقب من هذه المناقب، - أي صاحب جيش - تقاتل به، وصاحب قنص وقوس وأسهم، وما زهرة الخلافة وأمور المسلمين.

وتوجّه الى ابن عوف قائلا: أما انت يا عبد الرحمن، فلو وُزن نصف إيمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به، ولكن ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك.

ثم خاطب عثمان قائلا: هيهنا اليك، كأنني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني ابي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء فثارت اليك عصابة من آبات العرف فذبحوك على فراشك ذبحاً، والله لئن فعلوا لتفعلن، ولئن فعلت ليفعلن، ثم أخذ بناصيته قائلا: فاذا كان كذلك فاذكر قولي فإنه كائن.

وأقبل أخيراً على علي بقوله: لله انت لولا دعاية فيك، أما والله لئن وليتهم لتحملتهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء.

(١) سورة النساء آية ٢٠

(٣) قال الجاحظ: لما نزلت اية الحجاب، قال طلحة بمحضر ممن نقل عنه الى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ما الذي يغنيه حجابهن اليوم، سيموت غدا فنكحهن.

ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فقال: أنظر يا ابا طلحة، إذا عدتم من حفرتي فكن في خمسين رجلا من الأنصار حاملي سيوفكم، فخذ هؤلاء نفر بامضاء الأمر وتعجيله وأجمعهم في بيت، وقف بأصحابك على باب البيت ليتشاوروا ويختاروا واحداً منهم، فإن اتفق خمسة وأبى واحد فأضرب عنقه، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فأضرب عنقيهما، وإن اتفق ثلاثة وخالف ثلاثة فانظر الثلاثة التي فيها عبد الرحمن، فارجع الى ما قد اتفقت عليه، فإن أصرت الثلاثة الأخرى على خلافها فأضرب أعناقهم، ودع المسلمين يختاروا لأنفسهم.

وكان ما كان من أمر الشورى واجتماع الستة حيث انتهى الأمر بتنصيب عثمان. ويعترض الإمام عليه السلام بنقطتين مهمتين على قصة الشورى، يلخصهما بقوله:

**حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَاللَّهِ وَاللَّشُّورَى ! مَتَى اعْتَرَضَ (١)
الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أُفْرَنْ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ. (خطبة ٣)**

فالنقطة الأولى التي يسجلها الإمام عليه السلام على حكاية الشورى، هي أن ترتيب أفراد الشورى بهذا الشكل يخرج الإمام عليه السلام من المنافسة الحقيقية، بمعنى ان احتمال فوزه بالأمر أقل بكثير من احتمال فوز البقية، ويوضح الإمام عليه السلام هذا الأمر حين يقول في تنمة حديثه:

**فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لَضِغْنِهِ (٢) وَمَالَ الْأَخْرُ لَصِهْرِهِ، مَعَ هُنَّ وَهِنَّ (٣) إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجاً
حِضْنِيهِ (٤) بَيْنَ نَثِيلِهِ (٥) وَمُعْتَلَفِهِ. (خطبة ٣)**

فما جرى يوم إجتماع الستة للتشاور كان تماماً كما رسم له، فالخطة كانت مدبرة بحيث يتولى عثمان الخلافة وهكذا كان. ونظرة قصيرة على أفراد الشورى توضح هذا الأمر، وفيما يلي نستعرضهم واحداً فواحداً لنفهم وضعهم كما قال الإمام عليه السلام.

سعد هو ابن عم عبد الرحمن، وهو في نفس الوقت حاقد على الإمام عليه السلام، لأن أمه من بني أمية، فعلي هو قاتل أخواله، فمن الطبيعي إذن أن ينحاز عن الإمام عليه السلام وينضم إلى ابن عمه عبد الرحمن فسعد هو الذي صغى لضغنه، أي لحقده.

وعبد الرحمن كان صهراً لعثمان، وكان بينهما صلوات على ما يذكره الرواة، ومن جهة أخرى فعبد الرحمن من تيم، وعلي من هاشم، وبين الفريقين مودة حيث أن «تيم» ممثلة بأبي بكر إغتصبت الخلافة من بني هاشم، ولهذا انضم

(١) الاعتراض: السير على غير خط مستقيم، كأنه يسير عرضاً في حال سيره طولاً.

(٢) الضغْنُ: الضغينة والحقد.

(٣) مع هن وهن: أي أغراض أخرى أكره ذكرها.

(٤) نافجاً حِضْنِيهِ: رافعاً لهما، والحِضْنُ: ما بين الابط والكشح، يقال للمتكبر: جاء نافجاً حِضْنِيهِ.

(٥) النثيلُ: الروثُ وقدر الدواب.

فأصبح هؤلاء الثلاثة وقد اتفقوا على عثمان، ولم يعد هناك مجال للوقوف في وجههم حيث ان عبد الرحمن هو الذي بيده إبرام الامر، والكلمة النهائية. فالأمر إذن كان مدروسا منذ البداية لتكون نتيجته لصالح عثمان، ولذلك رأينا عمر يتنبأ منذ البداية بتولي عثمان، فكون الإمام عليه السلام داخلا بين الستة لا يعني أبدا أنه أُعطي فرصة متكافئة مع الآخرين للفوز بالخلافة، فهو مُبعد عنها بالضرورة.

وأما النقطة الثانية من إعتراض الإمام عليه السلام فهي في نفس طرح اسمه على لائحة واحدة مع هؤلاء الخمسة، لأن مقامه غير مقامهم، ويكفي ما ذكره عُمر عن سيرة هؤلاء، فالزبير يعبر عنه بأنه يوماً إنسان ويوماً شيطان، وطلحة مات رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وهو ساخط عليه، وسعد صاحب صيد وقوس وأسهم، وعبد الرحمن فيه ضعف ووهن، وأما عثمان فحدث ولا حرج. ولم يجد عمر عيباً في علي، ولكن كان لا بد من إيجاد أمر ما فيه ليكون له أسوة بالبقية، فاتهمه بأن فيه دعابة وهي تهمة يرفضها الإمام عليه السلام بشدة، ولنستمع اليه كيف أغلظ القول لعمر وبن العاص عندما إتهمه بها فيما بعد، حيث قال عليه السلام:

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ، يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً (١) وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ (٢) أُعَافِسُ (٣) وَأُمَارِسُ، لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِمًا. (خطبة ٨٣)

وانت إذا تأملت حال علي عليه السلام في أيام رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم وجدته بعيداً عن الدعابة والمزاح، لانه لم ينقل عنه شيء من ذلك أصلاً. وقد يعجب البعض كيف يرضى عُمر بعثمان خليفة على المسلمين مع ما يعرف من حاله! ويزول العجب عندما نعرف أن عُمر كان يُعيد يداً بيضاء كانت لعثمان عنده، يقول ابن أبي الحديد في الشرح:

عندما كان أبو بكر على فراش الموت قال لعثمان أكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به عبد الله ابو بكر بن ابي قحاطة الى المسلمين، أما بعد... ثم أغمي عليه. وكتب عثمان: وقد استخلفت عليكم عُمر بن الخطاب، وأفاق ابو بكر فقال: اقرأ، فقرأه، فكبر ابو بكر وسر» (٤)

والذي تجدر الإشارة اليه هو أن معظم نقد الإمام عليه السلام للخليفين كان ضمن الخطبة الشقشقية، فلم يُعرف عنه أنه تعرّض لهما في غير هذا الموضع، وكان بعد توليه الخلافة، ولو لاحظنا تنمة الخطبة لتيقن لدينا أن الإمام عليه السلام لم يأت بها عن سابق تصميم، والتتمة:

(١) الدُعابة بالضم: المزاح واللعب

(٢) تلعب بفتح التاء: كثير اللعب.

(٣) أعافس: أعالج الناس وأضاربهم مزاحاً، ويقال: المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة والممارسة كالمُعافسة.

(٤) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٣٢٨

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد (١) عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو أطردت مقالتك من حيث أفضيت (٢) فقال عليه السلام: هَيْهَاتَ يَا بَنَ عَبَّاسِ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ (٣) هَدَرْتُ (٤) ثُمَّ قَرَّتْ (٥). قال ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قطّ كأسفي على ذلك الكلام ألا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد. (خطبة ٣)

والإمام عليه السلام لم يقل هذا الكلام إلا عندما أصبح الصبر عليه مستحيلاً، صبر خمساً وعشرين سنة على غصب حقه في الخلافة، ولم تصل إليه بعد هذه المدة الا وقد تحولت الى ملك كسروي، وبعد فساد أمور المسلمين، وما أن تولاهما حتى نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون.

ولكن بالرغم من هذه المعاناة ما أن ناوله الرجل الكتاب ونظر فيه حتى كانت نفسه قد هدأت، فأعرض عن متابعة كلامه.

النقد على عثمان

عثمان كان يختلف كثيراً عن من سبقه، فهو كان موضعاً للانتقاد من قبل غالبية الصحابة، ولعل الإمام عليه السلام كان أقلهم إنتقاداً له، فمن ذلك ما ورد في الخطبة الشقشقية المذكورة حيث يقول عليه السلام:

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجاً حِضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلْفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضُمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَ الْأَبْلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ. (خطبة ٣)

ومن كلام له عليه السلام في معنى قتل عثمان:

اسْتَأْتَرَ فَأَسَاءَ الْأَثْرَةَ. (٦) (خطبة ٣٠)

(١) السّوَاد: العراق، وسُمِّي سواداً لخضرته بالزرع والاشجار، والعرب تسمي الاخضر أسود.

(٢) أَفْضَيْتَ: أصل أفضى: خرج إلى الفضاء، والمراد هنا سكوت الامام عما كان يريد قوله.

(٣) الشَّقْشِقَةُ بكسر فسكون فكسر: شيء كالرئثه يخرج البعير من فيه إذا هاج.

(٤) هَدَرْتُ: أَطْلَقْتُ صوتاً كصوت البعير عند إخراج الشَّقْشِقَةِ من فيه، ونسبة الهدير إليها نسبة إلى الالة.

(٥) قَرَّتْ: سكنت وَهَدَأَتْ.

(٦) أساء الأثرَةَ: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم

الفصل الخامس:

مبررات الإمام عليه السلام

سبق وأوضحنا موقف الإمام عليه السلام من الخفاء، وقلنا أنه كان كارها لأمرهم غير مقتنع بهم، ولكنه مع ذلك لم يحاول القيام بأي تحرك يضرّ بهم أو يُباعد الناس عنهم، بل العكس هو الصحيح إذ كان يُدافع عنهم إذا اقتضت الحال ذلك، كما كان من أمره مع أبي سفيان، والذي نريد بحثه في هذا الفصل، هو حول مبررات الإمام عليه السلام في موقفه هذا.

عند تتبعنا لكلمات الإمام عليه السلام في نهج البلاغة، نجد أنه يبرر عدم تحركه بثلاثة أمور:

أحدها: هو زهده في الخلافة. ثانيها: قلة الناصر والمعين له. والثالث: خوفه من وقوع الفتنة إذا ما قام للمطالبة بحقه. وفيما يلي نستعرض كلمات الإمام عليه السلام حول كل واحد من هذه المبررات الثلاث.

زهد الإمام عليه السلام بالخلافة

إذا كانت الدنيا بأسرها لا تساوي عند الإمام عليه السلام أكثر من عفة عنز، فأى شيء ستكون قيمة الخلافة وغيرها عنده؟ ليس أكثر من النعل التي يحتذيها:

قال عبدالله بن عباس رحمه الله: دخلت على أمير المؤمنين صلوات الله عليه بذى قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! قال: والله لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقاً، أو أدفع باطلاً. (خطبة ٣٣)

ولما عزموا على بيعة عثمان أوضح الإمام عليه السلام موقفه، فقال:

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمَتْ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّمَّاساً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهداً فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ. (خطبة ٧٣)

وقال أيضاً:

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلاَفَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلايَةِ إِرْبَةٌ. (خطبة ٢٠٥)

فأول تلك الأسباب التي دعت الإمام عليه السلام للسكوت عن المطالبة بالخلافة، كان لزهده بها.

فقدان الناصر

المبرّر الثاني لعودة الإمام عليه السّلام هو فقدان الناصر الذي تقام به الحجة. وفيما يلي نتتبع بعض كلامه في نهج البلاغة الذي يوضح فيه هذا الامر، فمن ذلك ما حكاه عن موقفه بعد مبايعة أبي بكر:

وَطَفِقْتُ أَرْتِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَدَّاءَ (١) أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ (٢) عَمِيَاءَ. (خطبة ٣)

وبعد وفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما أتاه العباس وأبو سفيان يعرضان عليه أن يبایعاه بالخلافة أجا بهما عليه السّلام:

أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَا ح. (خطبة ٥)

وفي معرض التظلم عما كان من أمور ما بعد السقيفة قال:

فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ. (خطبة ٢٦)

وإذا ما ضمنا زهد الإمام عليه السّلام بالخلافة الى ما ذكره هنا، لتبيّن لدينا أنه عليه السّلام يريد أن يقول: إنّ الحجة لم تقم عليه ليناهض القوم ويقف في وجوههم. فهو لم يكن يبحث عن مصلحته الشخصية، بل كان يبحث عن تكليفه الشرعي الذي يجب عليه تطبيقه، وكان يرى أن الحجة المُلزِمة له للقيام بالسّيف لم تقم عليه، ولذا قال: «لو وجدت أربعين ذوي عزم منهم لناهضت القوم». وعندما ظن الذين كانوا يجتمعون اليه أنهم قد بلغوا العدد المطلوب طلبوا اليه القيام بالأمر. فأجابهم: «أغدوا على هذا محلقي الرؤوس» فلم يعد إلا ثلاثة نفر، فالناصر الحقيقي للإمام كان عبارة عن أهل بيته فقط، ولم يكن الإمام عليه السّلام على استعداد أن يخوض معركة بهم، خوفا من انقطاع نسل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

خشية وقوع الفتنة

قبل البدء باستعراض كلمات الإمام عليه السّلام التي تفيد خشيته من وقوع الفتنة، نريد أن ندفع توهمها قد يحصل للبعض، إذ قد يقال: ما دام الإمام عليه السّلام يشكو قلة الناصر، ويعترف أن يده جدّاء، فهو إذن لا يستطيع القيام بالسيف على أية حال، سواء خاف وقوع الفتنة أم لا.

ويُجاب عن هذا التوهم، بأن الإمام عليه السّلام وإن كان يشكو قلة الناصر، ولكن هذا لا يعني أنه وحيد في الساحة، إذ كان حوله بني هاشم بأجمعهم، وبعض المؤيدين لهم، وكان هناك أصحاب المصالح أمثال أبي سفيان حيث عرض

(١) الجَدَّاءُ بالجيم والذال المعجمة: المقطوعة.

(٢) طَخِيَّةٌ بطاء فحاء بعدها ياء، ويثَلَّثُ أولها: ظلمة

نفسه على الإمام عليه السّلام قائلاً: فوالله لئن شئت لاملؤها خيلاً ورجلاً. ومجموع هؤلاء يشكل جبهة لا يستهان بها، فيمكن حينئذ مواجهة القوم، حيث تكون الفرص متكافئة عند كلا الطرفين.

ولكن ما هي نتيجة مثل هذا العمل، هل تكون إفتنة عمياء تفني المسلمين! فما دامت القوى متوازية فلا يمكن أن يوجد منتصر، وحتى لو انتصر أحد الطرفين عسكرياً، فإن الطرف الآخر باق على كل حال ويستحيل أفناؤه، فيبقى يتحين الفرص والدوائر أن تنزل بالطرف الآخر لينقضّ عليه، وهذه هي الفتنة التي يخشاها الإمام عليه السّلام. ومن هنا نفهم أن الناصر الذي كان يريد الإمام عليه السّلام، عبارة عن تأييد الغالبية العظمى، فتبقى الأقلية شردمة ليس بيدها شيء، وإذا ما تحقق ذلك يمكن حينئذ القيام والمطالبة دون خشية العواقب.

ونعود الآن لنتقصى كلمات الإمام عليه السّلام حول هذا الموضوع، يقول عليه السّلام:

فَمَا رَاعِنِي (١) إِلَّا انْثِيَالُ (٢) النَّاسِ عَلَيَّ فَلَانَ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ (٣) قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَيَّ مَحْقٍ دِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ أَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدْمًا، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَكْبَرَ مِنْ فَوْتٍ وَلَايَتِكُمْ. (كتاب ٦٢)

فالإسلام في محنة، وواجب الإمام عليه السّلام مناصرته، وليس أقل من السكوت عن المطالبة بحقه، وعندما عرض العباس وأبو سفيان مبايعته، قال عليه السّلام من جملة كلامه:

أَيُّهَا النَّاسُ، شَقُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ. (خطبة ٥)

فكان يرى الفتنة في قبوله المبايع بلا شك، وما دامت النجاة منها ممكنة، فهي الطريق الواجب اتّباعه، ويتابع عليه السّلام خطابه لهما بقوله:

وَمُجْتَنِي الثَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِيْنَاعَهَا (٤) كَالزَّرْعِ بِغَيْرِ أَرْضِهِ. (خطبة ٥)

فأوان المطالبة لم يحن بعد، والإمام عليه السّلام يدرك أنّ هذا الأمر كائن له، وصائر إليه لا محالة، فهذه الثمرة لا بد أن تينع، ويقطفها صاحبها. وكان كما توقع الإمام عليه السّلام، فكان الأمر إليه في النهاية، فوصلت إليه الخلافة، ولكن لم تكن على عهد السابق، فقد تحوّلت في الفترة الأخيرة إلى ملك كسروي أشبه منه بخلافة إسلامية، وأدى ذلك إلى مقتل الخليفة عثمان.

فماذا فعل عثمان، وكيف كانت ظروف مقتله؟ هذا هو موضوعنا للفصل التالي.

(١) رَاعِنِي: أَفْرَعَنِي.

(٢) انْثِيَالُ النَّاسِ: انْصِبَابُهُمْ.

(٣) رَاجِعَةَ النَّاسِ: الرَّاجِعُونَ مِنْهُمْ.

(٤) إِيْنَاعُهَا: نَضَجُهَا وَإِدْرَاكُ ثَمَرِهَا.

الفصل السادس:

خلافة عثمان

كان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، رجلاً بعيد النظر، وقد سبق وذكرنا كيف أنه عندما كان على فراش الموت، خاطب عثمان بحضور أعضاء الشورى، فقال له:

هيه اليك، كاني بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك، فحملت بني أمية وبني أبي معيط على رقاب الناس، وآثرتهم بالفيء فثارت اليك عصابة من رابان (١) العرف فذبحوك على فراشك.

لقد صدق حدس ابن الخطاب ثلاث مرات في حق عثمان: إذ تولى خلافة المسلمين، وحمل بني أمية على رقاب الناس، وكانت النتيجة التي توقعها عمر، مقتل عثمان في فتنة عمياء. وموقف الإمام عليه السلام من عثمان كان موقف الناصح المرشد، ولكن أنى لعثمان أن يستمع الى الناصح والمشفق؟ وحديثنا في هذا الفصل يدور حول عثمان وسيرته، والظروف التي أدت الى مقتله، وموقف الإمام عليه السلام منه.

إستئثار عثمان

يوجز أمير المؤمنين علي عليه السلام إستئثار عثمان بما بين يديه بقوله:

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالِ أَحَدَتْ أَحْدَاثًا، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا (٢) فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا. (خطبة ٤٣)

وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثْرَةَ (٣) وَجَزَعْتُمْ فَأَسَأْتُمْ الْجَزَعَ. (خطبة ٣٠)

ولكنها أية أثره كانت، فلنستمع الى الإمام عليه السلام يصفها في الخطبة الشقيقية، حيث يقول:

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجًا حِضْنِيهِ (٤) بَيْنَ نَثِيلِهِ (٥) وَمُعْتَلْفِهِ (٦) وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَ الْأَبْلِ نِبْتَةَ الرَّبِيعِ. (خطبة ٣)

(١) رابان العرف: الإبل الضخم زهاء سبعين والرجال الأقوياء

(٢) أَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا: جعلهم واجدين له.

(٣) أساء الأثره: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم.

(٤) نافعاً حِضْنِيهِ: رافعاً لهما، والحِضْن: ما بين الابط والكشح، يقال للمتكبر: جاء نافعاً حِضْنِيهِ.

(٥) النَّثِيلُ: الرَّوْتُ وَقَدْرُ الدَّوَابِّ.

(٦) الْمُعْتَلْفُ: موضع العلف.

يشبه الإمام عليه السلام أكلهم لأموال المسلمين «بالخضم» وهو الأكل بملء الفم، وشبه أموال المسلمين بنبته ربيعية طرية، وهي أصدق صورة، تُرسم لواقع الحال آنذاك.

يحدثنا التاريخ بالشيء الكثير عن كيفية إستئثار عثمان وأقاربه بالسلطة، فالبلاد الإسلامية الشاسعة أصبحت كلها تحت حكم بني أمية، فكان لا يحقّ لغير الأمويّ أن يتولى أبداً، وكان استلام أحد ولايتهم لبعض المناطق معناه إطلاق يده فيها، أي ملكيته لها، حتى قال والي الكوفة سعيد بن العاص «إن السواد بستان لقريش وبني أمية».

وقد كانت تصرفات عثمان لا تحتمل حتى كان ابن عوف أول من اعترض عليه في ذلك - وقد تقدم انه هو من أوصله للخلافة - فعندما رأى أفعال عثمان وقومه، قال له: يا بن عفّان، لقد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك، وإنني أستعيز بالله من بيعتك، فغضب عثمان وأمر غلامه بإخراجه بعد ان أمر الناس ألا يكلموه أبداً. فكان ابن عوف يقول: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما وليت عثمان شسع نعلي».

وعلى كثرة الوعّاظ لعثمان، كان هذا الأخير يردّهم رداً عنيفاً ومن هؤلاء أبو ذر الغفاري، الصحابي الكبير، فكان يؤتّب عثمان وجماعته إذ يقول مخاطباً لهم: «أتخذتم مستور الحرير، ونضائد الديباج، وألّفتم الاضطّجاج على الصّوف الأذربي، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ينام على الحصير، واختلّف عليكم بألوان الطعام، وكان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لا يشبع من خبز الشعير. ثم يتلو قوله تعالى: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَمَكَوٍ مِنْ نَارٍ، تُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ، وَجُنُوبُهُمْ، وَظُهُورُهُمْ» (١).

فكان نصيبه من ذلك النفي والتشريد من مكان الى آخر، حتى كان مماته أو مقتله، بعيداً في الربذة.

ولم يكن نصيب عمّار بن ياسر بأقل من صاحبه، فقد دخل على عثمان حاملاً رسالة من الصحابة يذكرون فيها شواذات ولاة عثمان، ويطالبون بإصلاحها، فكان جزاؤه أن إنهال عليه عثمان بالضرب ومن حضر مجلسه من بني أمية، حتى فتقت بطنه، ثم ألقوا به في الشارع وهو بالكاد يكون حياً وعمّار بن ياسر هو ابن أول شهيد في الإسلام.

وعظ الإمام عليه السلام

الإمام عليه السلام كان أيضاً من الصحابة الذين كانوا يترددون على عثمان محاولين نصحه بالرجوع الى الخط القويم الذي رسمه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. فيدخل عليه مرة قائلًا:

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَدْ اسْتَسْفَرُونِي (١) بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَتُخْبِرُكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغُكَ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَحَبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ

إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَشَيْجَةَ (٢) رَحِمَ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مَنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا.
(خطبة ١٦٤)

(١) اسْتَسْفَرُونِي: جعلوني سفيراً.

(٢) الوَشِيْجَةُ: اشتباك القرابة.

وليس هذا من قبيل تواضع الإمام عليه السلام حين يُساوي بينه وبين عثمان في العلم، لأنه إنما يقصد بالعلوم التي يساويه عثمان في معرفتها، وهي لا تتعدى الأحكام الشرعية الأولية التي يعلمها كل صحابي عن طريق سماعها من النبي، ومن أهم تلك الأحكام، عدم ظلم الرعية وأكل أموالهم بالباطل، وهذا ما لا يتقيد به الخليفة. ويكمل الإمام عليه السلام حديثه لعثمان مذكراً إياه بمسلك أبي بكر وعمر، فيقول:

وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَشَيْجَةَ رَحِمَ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مَنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. قَالَ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِيٍّ، وَلَا تُعَلِّمُ مَنْ جَهْلٌ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لِقَائِمَةٌ. (خطبة ١٦٤)

والى هنا يكون الإمام عليه السلام قد وضع عثمان في الجوّ الذي يؤهله، بل يشوقه لسماع بقية الحديث، وما تقدّم من الكلام كان توطئة لما يريد قوله فيما بعد، فالإمام عليه السلام قد أخبره أولاً: بأن الناس غير راضين عن سلوكه. وثانياً: إن سلوكه يخالف ما تعهد به لعبد الرحمن بن عوف عندما اشترط عليه لتسليمه الخلافة أن يسير بسيرة الشيخين. وثالثاً: أن ما يفعله عثمان لا يُعذر به ابداء، لأن حرمة من البديهيّات التي يعلمها عثمان. وبعد هذه المقدمة يقول الإمام عليه السلام مخاطباً له:

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَّ وَهَدِيٍّ، فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بِدْعَةَ مَجْهُولَةٍ، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَيْرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بِدْعَةَ مَثْرُوكَةٍ. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَادِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ (١) فِي قَعْرِهَا.

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبْتُ الْفِتْنُ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمْوَجُونَ فِيهَا مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجاً (٢) فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً (٣) يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السُّنَنِ وَتَقْضِي الْعُمْرِ.

(١) ربطه فارتبط: أي شدة وحبسه.

(٢) المَرْج: الخلط.

(٣) السَّيِّقَةُ كَكَيْسَةَ: ما استأقاه العدو من الدواب.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجِّدُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:
مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ. (خطبة ١٦٤)

وكان الإمام عليه السلام يحدث أصحابه فيما بعد عن موقفه من عثمان، وأنه لم يترك فرصة في سبيل نصحه وهدايته، فيقول في كتاب الى أهل الكوفة :

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلِيَّهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابِهِ (١) وَأَقْلَّ عِتَابِهِ. (كتاب ١)

ومن كتاب الى معاوية:

فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهَدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ. (كتاب ٢٨)

ولكن عثمان لم يعد مالكا لأمره، فكان التغيير بالنسبة اليه مستحيلا، ولذا طلب من الإمام عليه السلام أن يكف عن محاولاته، ولو كانت لدى عثمان الجرأة الكافية والقوة اللازمة، لفعل بعلي عليه السلام ما كان قد فعله بسواه من الصحابة. ولعل أهم عورات عثمان كانت مشاركته لمروان بن الحكم في جميع أموره، ولذا خصصنا الفقرة التالية للحديث عنه.

مروان الطريد

أكثر الصحابة من إنتقاد عثمان بسبب إستقدامه مروان بن الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتسليمه الكثير من أمور المسلمين، فهذا خازن بيت المال زيد بن أرقم يأتي اليه باكياً ويدفع اليه المفاتيح طالبا الإقالة، والسبب في ذلك هو أمر الخليفة لخازنه إعطاء مروان مائتي الف، في حين أنه لو أعطاه مئة لكان كثيرا عليه كما قال زيد.

وكانت تصرفات مروان فعلاً لا تطاق، فهو الذي حرّض عثمان على ضرب عمّار بن ياسر عندما جاءه برسالة الصحابة، وهو الذي سبب في نفي أبي ذرّ الى الرّبذة، وحاول منع عليّ من توديعه، ولكن علياً ضرب وجهه راحلته بسوطه ثم شتمه ومضى. حتى أنه توصل الى تحريض عثمان على عليّ عليه السلام، وذلك عندما أخبره أن علياً قد خالف أمره وشايع أبا ذرّ، وقد كان عثمان نهى عن تشييعه، فيغضب الخليفة لذلك أشدّ الغضب. ويأتي جماعة الى عليّ يخبرونه بذلك قائلين: «إنّ أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك ابا ذرّ». فيجيبهم عليّ متهكماً: «غضب الخيل على اللجم».

ولنستمع الى هذا الحوار الذي جرى بين عليّ عليه السلام وعثمان بحضور مروان الداهية. سأل عثمان علياً: ما حملك على ما صنعت بمروان واجترأت عليّ، ورددت رسولي وأمري؟ فأجاب عليه السلام: أما مروان فإنه استقبلني يردّني، فرددته عن ردي، وأما أمرك فلم أردّه. فقال عثمان: أولم يبلغك أنني نهيت الناس عن أبي ذرّ وعن تشييعه؟

(١) استعتابه: استرضائه.

فيقول عليّ عليه السّلام أوكل ما أمرتنا به من شيء يُرى طاعة الله والحق في خلافه أتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل.

والإمام عليه السّلام هو القائل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فكيف يطيع عثمان عندما تخالف أوامره الحق؟

وهنا يضطر عثمان للتنازل عن ملاحقة عليّ بسبب مخالفة أمره، ولكنه لا يستطيع التنازل عن شتم مروان وضرب راحلته، فيطلب من عليّ عليه السّلام أن يعطي لمروان حق الإقتصاص منه، فيقول له: فأقِد مروان. فيجيبه عليه السّلام: وما أقيده؟. فيقول عثمان: ضربت بين أذني راحلته. فيقول عليّ عليه السّلام أما راحلتي فهي تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل.

ولكن الإمام عليه السّلام يدرك أنّ عثمان يريد أن يجعلها واحدة بواحدة، فيعطي لمروان الحق بضرب راحلته وشتمه كما فعل الإمام عليه السّلام به، ولذا نراه يتم كلامه بقوله: وأما أنا فوالله لو شتمني لأشتمك انت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا.

ويستشيط عثمان غضبا لذلك ويقول للإمام: ولم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما انت عندي بأفضل منه. وهنا يقول الإمام عليه السّلام: إليّ تقول هذا القول، وبمروان تعداني؟. فأنا والله أفضل منك وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من أمك، وهذه نبلي قد نثلتها فهلّم فأقبل بنبلك.

فالإمام عليه السّلام يبادل مروان لو شتمه بشتم عثمان، لأنه هو الذي أجراه عليه، كما أنّه عليه السّلام لا يترك مكانا للمفاضلة بينه وبين مروان، بل يلجأ الى التفاضل على عثمان، فأين مروان طريد رسول الله من عليّ أخي رسول الله، وأخيرا فعليّ يعرض بوالد عثمان وأمه، فماذا عن إخبارهما يا ترى؟ الكتب تحدثنا الشيء الكثير عن ذلك، ولكننا سنعفي الخليفة من التعرّض له طالما أنه أقر الإمام عليه السّلام على هذه المفاضلة ولم يحاول أن يردّها عليه بالإدعاء أن والديه أفضل من أبي طالب وفاطمة بنت أسد.

الدّفاع عن عثمان

في الوقت الذي كان ينادي فيه الثّوار بعزل ابن عفّان، كانوا ينادون أيضا بتنصيب الإمام عليه السّلام مكانه، وكانوا يجهرون بذلك ولا يتسترون به، ولذا رأى عثمان أن يُبعد الإمام عليه السّلام عن المدينة مؤقتاً، حتى تخفّ مناداتة الثّوار بإسمه. فأرسل اليه أن يغادر المدينة الى (ينبع) وهي عين ماء للإمام خارج المدينة. ففعل الإمام عليه السّلام ذلك خوفاً من اتّهامه بتحريض الناس للمناداة بإسمه، ولكن لم يمضِ على وجوده هناك وقت طويل حتى شعر عثمان بفراغ مكانه، فأرسل اليه أن يعود للمدينة، فأطاعه الإمام عليه السّلام وفعل. ولكن ما ان رآه الناس بينهم حتى عادوا يُنادون بإسمه، فعاد عثمان يطلب منه ترك المدينة الى (ينبع) وأرسل اليه ابن عبّاس يبلغه رغبته، وهنا قال الإمام عليه السّلام وقد بدا عليه التأثر والألم:

يَابْنَ عَبَّاسَ، مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَالًا نَاضِحًا (١) بِالْغَرْبِ (٢) أَقْبِلْ وَأَدْبِرْ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أُخْرَجَ، وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا. (خطبة ٢٤٠)

وكانه لاح للإمام ان عثمان يشك في أمره ويتهمه بتحريض الثوار عليه، وهذا ما تفيدده الجملة الأخيرة من كلامه: «والله لقد دفعت عنه حتى خشيت ان أكون آثمًا». فكأنه يريد أن يقول: لماذا يريدني عثمان أن أخرج وأنا في موقف الدفاع عنه لا التحريض عليه. ودفاع الإمام عليه السلام عن عثمان لا يعني أبداً أنه يوافق على تصرفاته، بل هو من أشد المعارضين لسياسته ولكنه يرى ان الطريق الذي يسلكه الثوار غير صحيح، فقتل الخليفة ليس حلاً، وهو يصرح برأيه في معنى قتل عثمان بقوله:

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِرًا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثْرَةَ (٣) وَجَزَعْتُمْ فَأَسَأْتُمْ الْجَزَعَ (٤) وَاللَّهِ حُكْمٌ وَقِيعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَارِعِ. (خطبة ٣٠)

فهناك ثلاث فئات من الناس: قاتل، ومدافع، ومعتزل. أما القاتل فإن حكمه الى الله، وأما المدافع فهو ناصر له، والإمام عليه السلام - كما تقدم في حديثه الى ابن عباس - يخشى أن يكون آثمًا بسبب مدافعته بلسانه أمام الثوار على عثمان، فكيف اذا حُكم المناصر له بالسيف؟ وأما الاعتزال فهو موقف الإمام عليه السلام.

عُثْمَانُ وَالثَّوَارُ

مطالب الثوار من عثمان كانت تتلخص بأن يستبدل ولاته، ويعود للسّير بالمسلمين بسيرة الشيخين. فجمع عثمان ولاته وعرض عليهم ما يطلبه الناس، ليشير كل بما يراه.

والي البصرة عبدالله بن عامر قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تشغلهم عنك بالجهاد حتى يذلوا لك، ولا تكون همّة أحدهم إلا في نفسه، وما هو فيه من دُبر دابّته وقمل فروته. وقال سعيد بن العاص: أحسم عنك الداء، وأقطع عنك الذي تخاف، وإن لكل قوم قادة متى يهلكوا، يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (٥)

(١) نَضَحَ الْجَمْلُ الْمَاءَ: حملة من بئر أونهر ليسقي به الزرع فهو ناضح

(٢) الْغَرْبُ بفتح فسكون: الدلو العظيمة، والكلام تمثيل للتسخير.

(٣) أساء الأثرّة: أساء الاستبداد، وكان عليه أن يخفف منه حتى لا يزعجكم.

(٤) أسأتم الجَزَعَ: أي لم ترفقوا في جزعكم، ولم تقفوا عند الحد الاولي بكم.

(٥) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ١٣٥

وأما معاوية - على ما في الإمامة والسياسة- فأشار على عثمان بأن ينفي من المدينة شيوخ المهاجرين، وكبار أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبقية الشورى، حتى لا يجتمع منهم إثنان في مصر واحد.

فهذه وما شابهها كانت طروحات ولاة عثمان لحلّ الأزمة التي يمرّ بها، وأما أن يحاول إصلاح سيرته فهذا مما لم يشر به عليه أحد، كيف وأولى خطوات الإصلاح هي عزل هؤلاء الولاة جميعاً؟ حتى عثمان نفسه لم يكن يتوقّع منهم أن يشيروا بمثل هذا الأمر، بل لا يريد منهم ذلك، فهذا عمرو بن العاص - ولمصلحة إعراف بها - قال: يا أمير المؤمنين إنك قد ركبت ببني أمية فقلت وقالوا، وزغت وزاغوا، فاعتدل أو إنزل، فإن أبيت فاعزم عزمًا، وامض قدماً. فما كان من عثمان إلا ان جابهه بكلام عنيف، فقال له: مالك قمل فروك، أهذا بجدّ منك؟

واستمرّ عثمان في سيرته، وثار الناس عليه وقتلوه، وبذلك أصبح منصب الخلافة شاغراً، وبحاجة الى من يشغله، فاخترت الناس خليفتها، ولم يكن غير عليّ بن أبي طالب.

الفصل السابع: خلافة الإمام عليه السلام

كيفية البيعة

في كل ثورة - اذا كتب لها النجاح - تنتقل مقاليد الحكم الى الثوار، ويصبح بأيديهم تعيين الحكومة التي تحكمهم. وهذا أمرٌ معترف به، بل هو أهم ما يجب الاعتراف به لهم، فانهم ما قاموا بثورتهم الا من اجل تغيير أوضاع الحكم الفاسدة. وفي سنة خمسة وثلاثين للهجرة، حدثت في تاريخ الأمة الاسلامية ثورة، ثورة حقيقية تحوي المقومات المطلوبة، حكومة جائرة، وشعب حيّ له أهداف يريد من حكومته تنفيذها، ولكن خطّها الجائر الذي تسلكه يقف سداً حائلاً بينهم وبين مطالبهم..

وهنا يثور الشعب ويُقصي الحكومة عن مركزها، فنقول حينئذ أن من حقه تعيين حكومة جديدة يختارها بنفسه، تلبي أهدافه وتستمتع الى مطالبه.

كانت ثورة خمسة وثلاثين للهجرة أولى الثورات في تاريخ الأمة الاسلامية، وكانت هي المرة الأولى التي يتحمّل فيها الشعب مسؤولية إختيار الحكومة، وهي مسؤولية جسيمة تتطلب الوعي التام، وإلا أودى الشعب بنفسه في فتن وثورات لا نهاية لها. فالحكومات السابقة كان يتم الإتفاق على رأسها من خلال فئة قليلة من الصحابة، ثم كانت تفرض رأيها على بقية الناس، فلم يكن لأحد أن يرفض أو يتماهل.

ولكن ثورة خمسة وثلاثين أعطت أمر تعيين الحكومة لإختيار الشعب مباشرة، فكان عليه أن يختار لنفسه، وقد فعل وأحسن الإختيار، إختار الحكومة التي اقتنع أنها مخصصة له ومحقة لأهدافه، إختار الحكومة التي لو خُلي وشأنه منذ تأسيس اول حكومة لما إختار عنها بدلاً، لقد إختار «عليّ بن ابي طالب».

يحدّث التاريخ عن هذه الفترة: «ونهض رجل من المصريين يقول: يا أهل المدينة، إنكم أهل الشورى وأنتم تعتقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة، فانظروا رجلاً تنصبونه. فتعالت الهتافات من كل صوب عليّ، عليّ بن ابي طالب نحن به راضون». واعتلى الصحابي الزبير المنبر وقال: ايها الناس: ان الله قد رضي لكم الشورى فاذهب بها الهوى، وقد تشاورنا فرضينا عليّاً فبايعوه.

ونهض صحابي آخر -وهو عمار بن ياسر - يقول: أيها الناس إن عليّاً أولى الناس بهذا الأمر لفضله وسابقته. فعلت الأصوات من كل مكان: قد رضينا به، قد رضينا به. وعاد عمار ثانية يقول: أيها الناس إن عليّاً من قد علمتم، وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به. وعاد الناس يصيحون: قد رضينا، وهو على ما ذكرتم وأفضل.

ومضت تلك الحشود الى دار علي بن ابي طالب وهو معتزل فيه، فأحاطت بالدار حتى خرج إليهم، فعرضوا عليه البيعة، فرفض، وأصروا عليه فرض، وتوسلوا اليه فرفض. وقام أحد كبارهم- الأشر- يقول له: ننشدك الله، الا ترى ما نرى؟ الا ترى ما حدث في الإسلام؟ الا ترى الفتنة؟ الا تخاف الله؟ وساد الصمت، أي شيء يمكن أن يقولونه أكثر من هذا، كيف يمكنهم بعد هذا الكلام إقناع رجلهم العظيم، فنظر إلى العيون المتعلقة به، إلى الايادي الممتدة اليه، وقال: قد أحببتكم.

ويحدث الإمام عليه السلام عن فترة إتفاف الناس حوله لمبايعته، فيقول:

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَافِيلِ (١) عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ! قَبِضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُموها، وَنَازَعْتُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمْوها. (خطبة ١٣٧)

ومن كلام له عليه السلام كلم به طلحة والزبير بعد بيعته بالخلافة، وقد عتبا من ترك مشورتها، والاستعانة في الامور بهما:

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِزْبَةٌ (٢) وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمْوِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمْوِي عَلَيْهَا. (خطبة ٢٠٥)

فالإمام عليه السلام يحدث كما حدث التاريخ، هم يريدونه للخلافة وهو يرفض، وكان بالفعل يتمنى أن يعفيه الناس، ولكنهم لم يفعلوا، فكان لزاماً عليه الرضوخ عند رغبتهم. والسؤال هنا: لماذا كان الإمام عليه السلام لا يريد الخلافة؟ والجواب نأخذه منه نفسه عندما أراد الناس مبايعته:

دَعُوِي وَالتَّمِسُوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ (٣) وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ (٤) وَالْمَحَجَّةَ (٥) قَدْ تَنَكَّرَتْ (٦). (خطبة ٩١)

وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَثِبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكَتُمْوِي فَإِنَّا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمْوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا. (خطبة ٩١)

(١) المطافيل: جمع مُطْفَل بضم الميم وكسر الفاء: ذات الطفل من الانس والوحش.

(٢) الاربة بكسر الهمزة: الغرض والطلبية.

(٣) لا تثبت عليه العقول: لا تصبر له ولا تطيق احتمالاه

(٤) أَغَامَتْ: غَطِيَتْ بالغيم.

(٥) الْمَحَجَّة: الطريق المستقيمة

(٦) تنكّرت: تغيرت

إن فالإمام عليه السّلام عندما يرفض قبول الخلافة، فليس ذلك لمجرد الزهد، بل هناك سبب أهم وراء ذلك، وهو أن المفاهيم في عهد عثمان كانت قد قلبت رأساً على عقب، والأوضاع بمجملها قد فسدت، فكان على الإمام عليه السّلام- إذا ما تولى الخلافة- أن يصحّح تلك المفاهيم، ويغيّر تلك الأوضاع، وهذا لم يكن بالأمر السهل، لأن الفئة المستفيدة من بقاء الأمور على حالها لم تكن لترضى بشكل من الأشكال أن تُضرب مصالحها بهذه السهولة، بل المتوقع أن تقف في وجه كل حركة يقوم بها للإصلاح، ويصبح من واجب الإمام عليه السّلام حينئذٍ ضرب هذه الفئة حتى تعود الى الطريق الحقّ وهو ليس بالأمر الهين. فالإمام عليه السّلام كان يرفض الخلافة حتى لا يضطر الى مجابهة هذه الفئة، ولكن الناس حملوه على قبولها، فكان عليه أن يتحمّل ما كان يخشاه.

مداحض ومزالق

قال الإمام عليه السّلام ذات مرة، والارجح أنها كانت في آخر مدة ولايته:

لَوْ قَدْ اسْتَوَتْ قَدَمَايَ مِنْ هَذِهِ الْمَدَاحِضِ (١) لَغَيَّرْتُ أَشْيَاءَ. (حكمة ٢٦٣)

وهنا نريد الوقوف عند نقطتين: الأولى: في معرفة الأشياء التي كان الإمام عليه السّلام يريد تغييرها. والثانية: في ذكر المداحض التي يعنيها بكلامه.

أما بالنسبة للنقطة الأولى فنقول: في عهد عثمان فسدت أمور المسلمين بشكل جارح، وأصبح التهافت على جمع الأموال أمراً مألوفاً لدى الجميع حتى ولو كان من غير طريقه الشرعية، وكل ذلك سببه الخليفة، حيث منع أناساً ما يستحقونه من العطاء، ليمنحه الى آخرين، وكانت هباته الى المقرّبين لديه أكثر من أن تحصى، وهذا ما جعل المجتمع فرقتين، فرقة قد أبطرتها النعمة، وفرقة قد أعيها الفقر، فالقسم الأول يعيش في رفاهية وهناء، بينما القسم الآخر في بؤس وشقاء، وقد أوضح عليه السّلام هذا الأمر بقوله:

اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيرًا يُكَابِدُ فَقْرًا، أَوْ غَنِيًّا بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفَرًّا، أَوْ مُتَمَرِّدًا كَأَنَّ بِأُذُنِهِ عَن سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَقَرًّا!. (خطبة ١٢٩)

وهذا الوضع الفاسد كان من جملة الأشياء التي أراد عليه السّلام تغييرها. كما أنّ منصب القضاء، الذي هو من أهم مناصب الدولة وأشدّها حساسية، أصبح على عهد الخليفة الثالث بأيدي جماعة من الناس لا تعرف من قوانين الاسلام شيئاً، فلا يمنعها دينها ولا ضميرها من الحكم بغير الحق إذا إقتضت المصالح الخاصة ذلك، جهاز القضاء بمجمله كان الإمام عليه السّلام يريد تغييره.

ومن الأمور التي أراد الإمام عليه السّلام تغييرها، هو جهاز الدولة الإسلامية المتمثل بالولاية، وفساد هذا الجهاز كان من أهم الأسباب التي أدّت إلى الثورة على عثمان، لذا كان لا بدّ من البدء بتبديله.

(١) المَدَاحِضُ: المَزَالِقُ، يريد بها الفتن التي ثارت عليه.

وأما بالنسبة للنقطة الثانية فنقول: لقد سبق وقدمنا أن عثمان قد ترك الأمة الإسلامية في حالة يرثى لها، فكانت الأوضاع قد بلغت حداً من الفساد لا يمكن أن تتعداه، فقام عليه السلام يريد الإصلاح ولكن واجهته عقبات، متمثلة في ثلاث فئات من الناس ذكرها الإمام عليه السلام في خطبته الشقشقية حيث يقول:

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَّثَتْ طَائِفَةٌ (١) وَمَرَقَتْ أُخْرَى (٢) وَفَسَقَ وَقَسَطَ (٣) آخَرُونَ. (خطبة ٣)

فالمداحض التي يذكرها الإمام عليه السلام كانت بسبب هذه الفئات الثلاث، فكانت فترة خلافته عبارة عن حرب مستمرة معهم، فلم يستطع التفرغ لإعادة بناء المجتمع الإسلامي كما يريد وكما كان على عهد النبي والخليفين من بعده، ويحدّث عليه السلام عن قتاله لهذه الفئات بقوله:

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنَّكْثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخْتُ. (خطبة ١٩٢)

فقتال هؤلاء هو أمر من الله لعليّ بن ابي طالب، بلّغه إياه النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وفي شرح نهج البلاغة: إنّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ عليه السلام: ستقاتل من بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين (٤)، وقد فعل عليه السلام.

وفي الفصول التالية سيكون حديثنا عن كل فئة من هذه الفئات على حدة، فنبدأ بالناكثين، وننتهي بالقاسطين، وننتهي بالمارقين، وكل ذلك بما نستفيده من نهج الحق، نهج عليّ بن ابي طالب، نهج البلاغة.

(١) نَكَّثَتْ طَائِفَةٌ: نَقَضَتْ عَهْدَهَا، وَأَرَادَ بِتِلْكَ الطَّائِفَةِ النَّاكِثَةَ أَصْحَابَ الْجَمَلِ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ خَاصَّةً.

(٢) مَرَقَتْ: خَرَجَتْ، وَفِي الْمَعْنَى الدِّينِيَّةِ: فَسَقَتْ، وَأَرَادَ بِتِلْكَ الطَّائِفَةِ الْمَارِقَةَ الْخَوَارِجَ أَصْحَابَ النَّهْرَوَانَ.

(٣) قَسَطَ آخَرُونَ: جَارُوا، وَأَرَادَ بِالْجَائِرِينَ أَصْحَابَ صَفِينِ

(٤) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٠١

الفصل الثامن:

الناكثون

الناكثون، وهم أصحاب الجمل، كانت قيادتهم تتمثل بثلاث شخصيات إسلامية مهمة، عائشة، - زوج النبي - طلحة والزبير. هؤلاء الثلاثة نقضوابيعة الإمام عليه السلام بعد إبرامها، وجمعوا حولهم أناسا كثيرين، وكانت نهايتهم في وقعة الجمل الشهيرة. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة كانت له دوافع ومبررات للوقوف في وجه الإمام عليه السلام، وفي الفقرات التالية سنحاول استكشافها، فنحدث: أولا: عن موقف عائشة. ثانيا: عن موقف طلحة. وثالثا: عن موقف الزبير.

موقف عائشة

قال ابن ابي الحديد: إن عائشة كانت من أشد الناس على عثمان، حتى أنها أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين اليها: «هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يبيل و عثمان قد أبلى سنته» وكانت تقول: «اقتلوا نعثلاً (١)، قتل الله نعثلاً، وهي أول من سمى عثمان بذلك» (٢) فتحريض عائشة على عثمان كان بشكل علني وساخر، حتى أنها لما بلغها مقتلها وهي بالكوفة قالت: «أبعده الله، وذلك بما قدمت يداه، وما الله بظلام للعبيد».

وفي كتاب للإمام الى أهل الكوفة يوضح عليه السلام موقف عائشة بقوله:

وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فُلْتُهُ غَضَبًا، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَّلُوهُ. (كتاب ١)

ولكن ما ان قُتل عثمان حتى كانت عائشة أول المطالبين بدمه مدّعية أنه مات مظلوما، فما السر في ذلك؟

عائشة - أم المؤمنين- لم يكن لها أي حقد أو ضغينة على عثمان سوى أنه يتولى منصب الخلافة، هذا المنصب الذي أرادته أن يعود تيمياً كما كان، ويتولاه طلحة التيمي، وهي لم تستطع ان تخفي هذا الذي في نفسها، ويخبرنا عنه ابن ابي الحديد حيث يقول: لما قُتل عثمان كانت عائشة بمكة، وبلغ قتله اليها وهي بشراف فلم تشك في ان طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بعداً لنعثل وسحقاً، إيه ذا الإصبع، إيه ابا شبل، إيه يا ابن عم، لكأني أنظر الى إصبعه وهو

(١) النعتل: كثير شعر اللحية والجسد.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٦ - ص ٢١٥

يُبايع له، حتّوا الإبل ودعدعوها (١).

وروى أيضا أنها قالت حين بلغها مقتله: أبعد الله قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله، يا معشر قريش لا يسومنكم قتل عثمان، كما سام أحمر ثمود قومه، إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع- أي طلحة - فلما جاءت الأخبار ببيعة عليّ عليه السّلام قالت: تعسوا، تعسوا، لا يردون الأمر في تيم أبداً.

فعائشة إذا لم تكن تنقم على عثمان لكونه غير عادل - كما كانت تدّعي - بل كل ما في الأمر إنها كانت تريد الخلافة لطلحة التيمي.

ولكن جاءها النبأ الصاعق بإستخلاف عليّ عليه السّلام، أولم يكفهم أنهم لم يبايعوا طلحة حتى بايعوا عليا؟ ان لا ينصبوا طلحة، فهو أمر مؤسف ومهّدم للأمني والأحلام، ولكن أن يختاروا عليا فهذا أمر لا يمكن السكوت عنه بحال. ونترك الحديث لابن أبي الحديد يخبرنا عما فعلته وقالته عائشة عند وصول الخبر اليها، قال:

«إن عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة أقبلت مسرعة وهي تقول: إيه ذا الإصبع لله أبوك، أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوا». فلما انتهت الى شراف، إستقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي، فقالت له: «ما عندك؟ قال: قتل عثمان. قالت: ثم ماذا؟ قال: ثم حرت بهم الأمور الى خير محار، بايعوا علياً. فقالت: لوددت أن السماء إنطبقت على الأرض ان تمّ هذا. ويحك، أنظر ما تقول، قال: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين، فولولت، فقال لها ما شأنك يا أم المؤمنين، والله ما أعرف بين لأبتيها أحدا أولى بها منه ولا أحق ولا أرى نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته قال: فما ردّت جواباً» (٢)

وكنا نكتفي بهذه الرواية لنفهم حقيقة موقف عائشة من عثمان، ولكن هناك ملاحظة نريد إيرادها بعد قليل، لذلك سنذكر رواية أخرى في الموضوع، ونأخذها أيضا من شرح ابن أبي الحديد، قال:

روى ابن أبي حازم، إنه حج في العام الذي قتل فيه عثمان، وكان مع عائشة لما بلغها قتله، فسمعها تقول في بعض الطريق: إيه ذا الاصبع، وإذا ذكرت عثمان قالت: أبعد الله، حتى أتاهما خبربيعة الإمام عليه السّلام، فقالت: لوددت ان هذه وقعت على هذه... ثم أمرت بردّ ركائبها الى مكة فردت معها، ورأيتها في سيرها الى مكة تخاطب نفسها، كأنها تخاطب أحدا: قتلوا ابن عفان مظلوما. فقلت لها: يا أم المؤمنين ألم أسمعك أنفا تقولين: أبعد الله! وقد رأيتك قبل أشد الناس عليه وأقبحهم فيه قولا، فقالت: لقد كان ذلك، ولكنني نظرت في أمره فرأيتهم إستتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائما محرما في شهر حرام فقتلوه (٣).

والملاحظة التي نريد تسجيلها هنا، أن المسلمين في تلك الايام قد فهموا الحقائق التي أوردناها عن موقف عائشة،

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٦ - ص ٢١٥

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٦ - ص ٢١٦

(٣) شرح ابن أبي الحديد ج ٦ - ص ٢١٦

فنرى في الروايتين المختلفتين ان الراويين يتعمدان ذكر تحريض عائشة على عثمان، ثم أملها في ان يكون طلحة هو الخليفة، ثم إستنكارها الشديد على إستخلاف عليّ، فقامت للمطالبة بدم عثمان، فهي حتى لو تغاضت عن عدم وصول الخلافة الى طلحة، فإنها لن تستطيع السكوت على إستخلاف عليّ، ولذا ثارت عليه بدافع حقد قديم تحمله في نفسها، وهو أمر يدركه عليه السّلام بوضوح فنراه يقول:

وَأَمَّا فَلَانَةُ، فَأَذْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِعْنُ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلٍ (١) الْقَيْنِ (٢) وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ. (خطبة ١٥٦)

والحقد الذي كانت تحمله عائشة على الإمام عليه السّلام له اسبابه من وجهة نظرها، ولعل أهمها على الإطلاق، إشارة عليّ عليه السّلام على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم بطلاقها عندما فُذفت، ثم مكانة علي عليه السّلام المرموقة في قلب النبي دون أبيها، ومكانة زوجته فاطمة من قبله دونها، والى ما شابه ذلك، وفوق هذا جاءت قصة إستخلافه دون ابن عمها طلحة.

وعندما جاءها كتاب طلحة والزبير: «ان خذلي الناس عن بيعة عليّ، وأظهري الطلب بدم عثمان» كانت فرصتها المناسبة فاستغلّتها.

موقف طلحة

وأما طلحة - الركن الثاني من أركان الناكثين- فإن موقفه من عثمان لم يكن ليختلف عن موقف عائشة، والذي قد نستفيدة من تتابع الأحداث أنه كان بينهما إتفاق مُسبق على كل ما جرى، ذلك للتشابه التام في تصرفات كل منهما، فطلحة كان من أشد المحرّضين على عثمان، لذلك نجد الإمام عليه السّلام - كما في تاريخ الطبري - يقول لطلحة وعثمان محصور: أنشدك الله ألا رددت الناس عن عثمان، فيجيبه طلحة: «لا والله حتى تعطي بنو أمية الحق من نفسها».

وروى أيضا أن عليا كان في خيبر حين حصر عثمان، وعندما قدم طلب منه عثمان أن يكلم طلحة في فك الحصار عنه، فكلمه ولكن طلحة رفض، وعندما قتل عثمان منع من دفنه ثلاثة ايام. والإمام عليه السّلام يعلن عن مسؤولية طلحة بن عبيد الله واشتراكه في قتل عثمان لذا يقول في حقه حين بلغه خروجه والزبير إلى البصرة لقتاله:

وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا (٣) لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنُتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ. (خطبة ١٧٤)

(١) المِرْجَلُ: القِدْرُ.

(٢) القَيْنُ بالفتح: الحداد.

(٣) مُتَجَرِّدًا: كأنه سيف تجرد من غمده.

فهذه أولى النقاط التي كان يشترك فيها طلحة وعائشة وهي التحريض على عثمان.

وأما النقطة الثانية فهي سعي طلحة للخلافة، وكان هذا المبرر الوحيد الذي دعى طلحة للتحريض على عثمان. قال ابن أبي الحديد:

كان طلحة قد أجهد نفسه في أمر عثمان والإجلاب عليه، والحصر له والإغراء به، ومُنَّته نفسه بالخلافة، بل تلبَّس بها وتسَلَّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها، وقابل الناس وأحدقوا به، ولم يبق إلا أن يصفق بالخلافة على يده (١) وقد اتجهت أنظار طلحة نحو الخلافة وطمع بها، منذ ذلك اليوم الذي جعله فيه عمر أحد أفراد الشورى الستة، وعندما رأى نقمة الناس على عثمان، عرف أن هذه فرصته العظيمة وربما الوحيدة وخاصة أنه قد أتيح له سند قوي يدعمه في مبتغاه، عائشة أم المؤمنين..

روى الطبري عن ابن عباس انه قال:

لما حججت بالنيابة عن عثمان وهو محصور، مررت بعائشة بالصلصل، فقالت: يا بن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا وعقلا أن تخذل الناس عن طلحة، فقد بانث لهم بصائرهم في عثمان وأنهجت، ورفعت لهم المنار وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمِّ، وإن طلحة فيما بلغني قد إتخذ رجالا على بيوت الأموال وأخذ مفاتيح الخزائن، وأظنه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمه أبي بكر. فقال: يا أماه، لو حدث بالرجل حدث ما، فزع الناس الى صاحبنا. فقالت: أيها عنك يا بن عباس إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك. وبالطبع فابن عباس ليس هو الرجل الوحيد الذي خاطبته عائشة لمناصرة طلحة.

وأما النقطة الثالثة التي يتشابه بها تصرف عائشة وطلحة، فهي إنها بعد أن فشلا في تحقيق هدفهما أعلننا المطالبة بدم عثمان، وجعلاه غطاءً لهما لتحقيق خطوتهما التالية، وهي إفساد أمر الخلافة على الإمام عليه السلام.

موقف الزبير

موقف الزبير لم يكن يختلف كثيرا عن موقف رفيقيه، فهو أيضا كان من المحرضين على عثمان طمعاً في أن تؤول الخلافة اليه بعد مقتله، وعندما رأى ان الأمر قد خرج من يده هبّ طالبا بدمه.

فالهدف المشترك بين الثلاثة هو نقض بيعة الإمام عليه السلام كخطوة أولى، ويوضح عليه السلام هذا الأمر بقوله:

إِنَّ هَوْلَاءَ قَدْ تَمَالَأُوا (٢) عَلَى سَخْطَةِ (٣) إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ١٠ - ص ٥

(٢) تمالأوا: اتفقوا وتعاونوا.

(٣) السخطة بالفتح: الكراهة والبغض.

تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ (١) انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا
اللَّهُ عَلَيْهِ (٢) فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. (خطبة ١٦٩)

ولو تمّ لهم تحقيق هذا الأمر لكان لهم مع بعضهم البعض خلاف ونزاع، وذلك لأن كل واحد منهم له هدف من نقض بيعة الإمام عليه السلام. أما عائشة فهدفها الأول نقض البيعة في نفسها، والهدف الآخر الذي يلحق بهذا هو تنصيب طلحة. ولكن طلحة والزبير كان كل واحد منهما يريد الأمر لنفسه ولا يتنازل عنه للآخر.

وبطبيعة الحال لم يغيب هذا الأمر عن ذهن الإمام عليه السلام فكان يقول:

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمْتَنُّانِ (٣) إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمْدَانِ
إِلَيْهِ بِسَبَبٍ (٤) كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبٍّ (٥) لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ
أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا. (خطبة ١٤٨)

والذي حدس به الإمام عليه السلام كان سيتحقق بلا شك، ولدينا الشاهد على ذلك، قال ابن أبي الحديد: كان عبدالله بن الزبير هو الذي يصلي بالناس في أيام الجمل، لأن طلحة والزبير تدافعا للصلاة، فأمرت عائشة عبد الله ان يصلي قطعا لِمَنَازَ عَتَمَا. (٦)

فإذا كنا يتدافعان للصلاة فكيف الأمر حين تنحصر الخلافة بهما! وعلى أية حال فتقديم أحدهما للصلاة يعتبر مؤشرا على تقديمه للخلافة.

محاولة مساومة عليّ

لما رأى طلحة والزبير إنشغال الناس على عليّ عليه السلام بيباعونه، علما أنه من خطل الرأي أن يحاولوا بعد ذلك جرّ الأمر نحوهما، فكان لا بدّ من تبديل الخطة، وسرعان ما وجدا الخطة البديلة، فما لا يُدرك بتمامه لا يُترك بتمامه، فلا أقل من أن يكونا شريكين في الخلافة بعد ان لم يتمكنوا من الاستقلال بها فجاءا الى الإمام عليه السلام ليطرحا هذا الأمر وقالوا:

(١) فَيَالَةِ الرَّأْيِ بِالْفَتْحِ: ضَعْفُهُ.

(٢) أَفَاءَهَا عَلَيْهِ: أَرْجَعَهَا إِلَيْهِ.

(٣) لَا يَمْتَنُّانِ: لَا يَمْدَانِ

(٤) السَّبَبُ: الْحَبْلُ.

(٥) الضَّبُّ بِالْفَتْحِ وَيَكْسُرُ: الْحَقْدُ، وَالْعَرَبُ تَضْرِبُ الْمِثْلَ بِالضَّبِّ فِي الْعُقُوقِ.

(٦) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ - ص ١٦٦

نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر. فقال: لا، وَلَكِنَّمَا شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِعَانَةِ، وَعَوْنَانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالْأَوْدِ (١). (حكمة ١٩٢)

وكان لا بد لهما من أن يبايعا كما يريد الإمام عليه السلام لا كما إشتهر، إذ أدركا أن معارضتهما لن تجدي شيئا. وفي هذه الأثناء كان عليا عليه السلام قد أرسل الى معاوية يأمره بأخذ البيعة له من أهل الشام، وكان معاوية قد سمع عن الإمام عليه السلام قوله فيما أقطعه عثمان:

وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِنَّ النَّسَاءَ، وَمَلَكَ بِهِنَّ الْأَمَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ. (خطبة ١٥)

وهو ليس غيباً عن شدة الإمام عليه السلام وصرامته في الحق، وأنه ان قال فعل وفوق ذلك أتاه كتاب عمرو بن العاص يقول فيه: أما بعد، ما كنت صانع فاصنع، إذ قشرك ابن ابي طالب من كل مال تملكه، كما تقشر من العصا لحاها.

ولم يكن معاوية يحتاج الى المزيد ليفهم ويدرك، فكتب الى الزبير يقول: أما بعد، فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا وإستوسقوا كما يستوسق الجلب، فدونك الكوفة والبصرة، لا يسبقك اليها ابن ابي طالب، فإنه لا شيء بعد هذين المصريين، وقد بايعت لطلحة بن عبيد الله من بعدك، فأظهرا الطلب بدم عثمان، أظفر كما الله وخذل مناوئكما (٢) هنا عاد الأمل يدغدغ قلوبهما، فمعاوية قد ضمن لهما الشام، وما عليهما إلا محاولة السيطرة على الكوفة والبصرة، وأيسر الطرق لهذا الأمر أن يطلبوا من الإمام عليه السلام توليتهما على هذين المصريين، فأجابهما عليه السلام بقوله: «حتى أنظر» (٣)

فهو كان يرتاب في أمرهما، ثم جاء ابن عباس ليؤكد إرتيابه إذ قال له عند إستشارته: إن الكوفة والبصرة عين الخلافة، وبهما كنوز الرجال، ومكان طلحة والزبير من الإسلام ما قد علمت، ولست آمن أن وليتهما ان يحدثا أمراً.

وبعد ان رأى طلحة والزبير ان الإمام عليه السلام رفض طلبهما أخذا في تحريض الناس عليه، وإظهار كراهيتهما لخلافته، فدعاهما الإمام عليه السلام اليه وقال لهما:

لَقَدْ نَقَمْتُمَا يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا، أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمْ عَنْهُ؟ وَأَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهْلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ. (خطبة ٢٠٥)

(١) الاود: بلوغ الامر من الانسان مجهوده لشدة وصعوبة احتماله.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٣١

(٣) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٢٣٣

وعندما تيقنا أن مساومة الإمام عليه السلام في دينه غير ممكنة أتياه يطلبان السماح لهما بالعمرة، فقال لهما عليه السلام وقد أدرك مرادهما: ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة ونكث العهد. فحلفا له أنهما لا يريدان غير العمرة، فأمرهما أن يعيدا البيعة ثانية، ففعلا، ولكن ما إن خرجا من المدينة قاصدين مكة حتى نكثا البيعة، وأدعيا أنهما إنما بايعا مكرهين، وفي هذا يقول عليه السلام:

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ، وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقْرَّ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيَجَةَ (١) فَلَيَأْتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرَفُ، وَإِلَّا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ. (خطبة ٨)

ويقول فيهما معا، في كتاب لهما:

فَإِنْ كُنْتُمْ بَايَعْتُمَانِي طَائِعِينَ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمْ بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيَكُمَا السَّبِيلَ (٢) بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ. (كتاب ٥٤)

اجتماع الناكثين

في مكة المكرمة اجتمع أطراف حركة الناكثين الثلاثة، عائشة، طلحة والزبير. وبدأ الحوار بين هؤلاء الثلاثة عن أفضل الطرق التي تمكنهم من التوصل الى هدفهم - وهو نقض بيعة الإمام عليه السلام - إذ لا بد من حجة يتمسكون بها تخولهم محاربة الخليفة. عثمان مثلا كان المبرر لنقض بيعته هو فساد، ولكن أي شيء ينقضون به علي بن ابي طالب؟

مفتاح الحل كان معاوية، فقد سبق وذكرنا كتابه الى ابن الزبير يشير عليه أن يقوم بالمطالبة بدم عثمان، فتقرر في هذا الاجتماع الأخذ بمشورة معاوية، وبحملهم هذا الشعار كانوا أيضا يحصنون أنفسهم فيما لو قام غيرهم بالمطالبة بدم عثمان، وخاصة طلحة فإنه كان من أشد المحرضين على عثمان وسيكون هو أول المطالبين بدمه، ولكن الإمام عليه السلام قد فضح هذا الأمر عندما يقول متحدثا عن طلحة:

وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنُتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيُتَبَسَّ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. (خطبة ١٧٤)

وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانٍ ظَالِمًا كَمَا كَانَ يَزْعُمُ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَارَرَ قَاتِلِيهِ وَأَنْ يُنَابَذَ (٣) نَاصِرِيهِ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ

(١) الوليعة: الدخيلة وما يُضمَر في القلب ويكتم.

(٢) جعلتما لي عليكما السبيل: أي الحجة.

(٣) المنابذة: المراماة، والمراد المعارضة والمدافعة.

مِنَ الْمُتَّهِنِينَ (١) عَنْهُ وَالْمُعْذِرِينَ فِيهِ (٢) وَلَئِن كَانَ فِي شَكِّكَ مِنَ الْخَصَلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُذَ جَانِباً وَيَدْعَ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بِأَبِيهِ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَادِيرُهُ. (خطبة ١٧٤)

الذي جاء به طلحة، كان أن حمل راية المطالبة بدم عثمان، وممن؟ من الخليفة الشرعي، من الشخص الذي هو أبرأ الناس من دمه. وهكذا أخذ الثلاثة يكيلون الإتهامات الى ابن ابي طالب بأنه المسؤول عن دم عثمان، والإمام عليه السلام بطبيعة الحال لم يسكت عن ذلك بل ردّ الاتهام الى نورهم وأوضح هدفهم من ذلك. وها هنا نقاط أربع يجب الوقوف عندها:

النقطة الأولى في قوله عليه السلام:

وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيفًا (٣)، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ. (خطبة ٢٢)

وفي مكان آخر كتب عليه السلام لأهل الكوفة كتابا يوضح ما كان من أمر عثمان وجاء في جملته:

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيَّ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابِهِ وَأَقْلَّ عِتَابِهِ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ (٤) وَأَرْفَقُ حَدَائِهِمَا (٥) الْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فُلْتَةٌ غَضَبٌ، فَأَتَيْحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ. (كتاب ١)

فالإمام عليه السلام يتهم الثلاثة بمسؤوليتهم عن قتل عثمان، لأن القاتل ليس هو المنفذ فقط، فربّ كلمة تسببت في مقتل إنسان، فيكون قائلها مشاركا في قتله، فكيف اذا كان هناك تحريض علني مباشر على قتله كما كان من أمر الثلاثة في حق عثمان! فعائشة كانت تقول: أقتلوا نعتلا فقد كفر، والزبير كان يقول: «أقتلوه فقد بدل دينه، ان عثمان لجيفة على الصراط غدا». (٦)

وأما طلحة فقد كان من أشد الناس تحريضا عليه حتى روي انه كان يوم قتل عثمان مقنعا بثوب قد أستتر به عن أعين الناس يرمي الدار بالسهم. ويلخص عليه السلام نتيجة موقف الثلاثة: «فأتيح له قوم فقتلوه». فتحريضهم هو السبب المباشر لقتله، فهم قتلاته.

(١) نهنه عن الامر: كفه وزجره عن إتيانه

(٢) المعذرين فيه: المعتذرين عنه فيما نقم منه.

(٣) النّصيف بالكسر: المنصف، أي: لم يحكّموا رجلاً عادلاً بيني وبينهم.

(٤) الوجيف: ضرب من سير الخيل والابل سريع

(٥) الحداء: زجل الابل وسوقها.

(٦) شرح ابن ابي الحديد ج ٩ - ص ٣٦

النقطة الثانية في قوله عليه السّلام:

وَأِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فَأَنْتَ كُنْتَ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ،
وَلَئِنْ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ. (خطبة ٢٢)

فبعد ان كان الإمام عليه السّلام قد أعاد الاتهام اليهم ودعمه بالشواهد، عاد هنا ليبطل احتجاجهم عليه ويعيده اليهم، لأن الاتهام بقتل عثمان إما ان يتوجه الى الاربعة - ومن ضمنهم الإمام عليه السّلام - وإما الى الثلاثة ويكون الإمام عليه السّلام بريئاً من ذلك. وأما أن يكون الإمام عليه السّلام وحده مسؤولاً فذلك مما لم يدّعه أحد من الناس.

فان كان الإمام عليه السّلام شريكهم في دمه فلماذا يطلبون الحق منه اذ ان العقاب الذي سوف يناله يجب ان ينالوه هم أيضاً، وان كانوا وحدهم المسؤولين فهم وحدهم المطالبون بدمه، وعلى أية حال لا يحق لهم على الإمام عليه السّلام شيء.

النقطة الثالثة، وهي في قول الإمام عليه السّلام:

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ دَمَّرَ (١) حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ جَلْبَهُ لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نَصَابِهِ (٢)، ... يَرْتَضِعُونَ أُمَّاً قَدْ فَطَمَتْ (٣) وَيُحْيُونَ بِدَعَاةٍ قَدْ أُمِيتَتْ. (خطبة ٢٢)

فهنا يوضح الإمام عليه السّلام هدفهم من حمل شعار المطالبة بدم عثمان فواقعهم ليس كما يحاولون إظهاره من أنهم يريدون الاقتصاص من قتلة عثمان إحقاقاً للحق، بل هدفهم شيء وراء ذلك، فإن الشيطان قاندهم وهو الذي يسيرهم، وأي شيء يريد الشيطان سوى إحياء الباطل وإماتة الحق؟ فهم عندما يقولون أن عثمان قد قتل مظلوماً فمعناه انه لم يكن قد فعل شيئاً يستحق القتل وهذا يعني رضاهم عن سيرته، فيكونون بمطالبتهم بدمه يطالبون باعادة سيرته، وهي بدعة قد أميتت.

وأما الأم التي فطمت وجفّ لبنها فهي الخلافة التي أصبحت بيد عليّ عليه السّلام ولكنها مع ذلك ما زال يطمحان بها.

النقطة الرابعة في قوله عليه السّلام من كتاب لطلحة والزبير:

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْتِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ. (كتاب ٥٤)

(١) دَمَّرَ حِزْبَهُ: حثهم وحضهم، وهو بالتشديد أدلّ على التكثر، ويروى مخففاً أيضاً من باب ضرب ونصر.

(٢) النَّصَابُ بكسر النون: الاصل أو المنبت وأول كل شيء.

(٣) أُمَّاً قَدْ فَطَمَتْ: أي تركت إرضاع ولدها بعد أن ذهب لبنها، يشبهه به طلب الامر بعد فواته.

وذلك نهاية المطاف، فالإمام عليه السّلام قد حاججهما وأفحمهما، واستشهد وأجاد الإستشهاد، ومع ذلك فالمكابر يستمر في مكابرتة، ويتابع في تحججه. وقطعاً لمكابرتة وإحتجاجه لجأ الإمام عليه السّلام الى الإحتكام، ففي المدينة أناس كانوا على الحياد وما زالوا، فهم لم يميلوا الى القوم الناكثين ولم يتبعوا عليّاً، أي أنهم طرف محايد يمكن الإحتكام اليه والإلتزام بحكمه، ولكن الخصم رفض هذا الإقتراح، ورفضه دال على ذنبه.

تأثيرات الناكثين

منذ أن خرج طلحة والزبير من المدينة متّجهين الى مكة ظهرت نواياهما، فكانا كلما مرّا على أحد من الناس يعلنان أن لا بيعة للإمام في عنقيهما وأنهما إنما بايعا مكرهين.

وعين الإمام لم تكن تغفل عما كانا يفعلان لذلك رأى إيقافهما قبل أن يستفحل أمرهما، ولذلك نراه يقول لما أشير اليه بأن لا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لهما القتال:

وَاللّٰهُ لَا أَكُونُ كَالضَّبْعِ تَنَامَ عَلَى طُولِ الدَّمِ (١) حَتَّىٰ يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا (٢) رَاصِدُهَا
وَلَكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّمْعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيِ الْمُرِيبَ أَبَدًا، حَتَّىٰ يَأْتِيَ
عَلَيَّ يَوْمِي. فَوَاللّٰهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ صَلَّى اللّٰهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّىٰ يَوْمِ النَّاسِ هَذَا. (خطبة ٦)

ولم يكن الإمام عليه السّلام يرى الحرب إلا حيث لا علاج غيرها، لذلك كان يرسل الرّسل محاولاً إقناع الإثنين بالعدول عن سيرتهما، فنراه تارةً يكتب اليهما محتجاً عليهما، ويختتم بقوله:

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ.
(كتاب ٥٤)

وتارة أخرى يرسل اليهما الرسل، كابن عباس، حيث يوصيه بأن يلقي الزبير ويقول له:

يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ. (خطبة ٣١)

ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً معهما، ولم يثنيهما عن عزمهما. وقد عانى الإمام عليه السّلام منهما الشيء الكثير، إذ أنهما تمكّنا من تأليب الناس عليه، وإشعال نار الفتنة، فنراه عليه السّلام يتظلم من أفعالهما بقوله:

(١) اللّٰدَمُ: صوت الحجر أو العصا أو غيرهما، تضرب به الارض ضرباً غير شديد

(٢) يَخْتَلِهَا: يخدعها.

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَالْبَا (١) النَّاسَ عَلَيَّ، فَأَخْلَلْنَا مَا عَقَدْنَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أُبْرِمَا، وَأَرِهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَّلَا وَعَمَلَا. (خطبة ١٣٧)

والجيش الذي سارا فيه كان بأكمله يدين للامام بالطاعة، وبهذا يقول في معرض حديثه عن إخراجهما عائشة معهما:

فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا تُجْرُ الْأُمَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ (٢) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أُعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَّحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ. (خطبة ١٧٢)

التوجه الى البصرة

في إجتماع الناكثين الذي إتفق فيه على حمل شعار المطالبة بدم عثمان، جرى جدال بين المجتمعين في تحديد المصر الذي يكون منه إنطلاقهم. وللمرة الثالثة تغلب رأي معاوية فكان العمل حسب مشورته ونصيحته، فهو كان قد أشار على الزبير أن يبدأ وصاحبه بالإستيلاء على البصرة والكوفة، إذ ليس بعدهما شيء، وهكذا تقرر الإبتداء بالبصرة أولاً.

ولما انتهوا بجيشهم الى مشارف البصرة، كتبوا الى واليها عثمان بن حنيف ان يخلي لهم دار الإمارة، ولكنه رفض التصرف دون إذن من الإمام عليه السلام، وفي هذه الأثناء كان الإمام عليه السلام قد علم بمشاركة القوم البصرة، فأرسل الى ابن حنيف كتابا يأمره فيه بأن يدعو القوم الى الطاعة والافتقارهم هو الحل.

ولكن القوم كانوا قد علموا بسير علي عليه السلام اليهم لذلك أسرعوا في تنجيز مخططهم، فتهافتوا على ابن حنيف، ومثلوا به أشنع تمثيل، ثم هجموا على أصحابه، فأسروا قسما منهم، وأما القسم الآخر فقاتل حتى استشهد، وعاد الزبير الى الأسرى فذبحهم ذبح الغنم. وفي كلام للامام عليه السلام عن هذه الأحداث يقول:

فَقَدِمُوا عَلَيَّ بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا (٣) وَطَائِفَةً غَدْرًا. (خطبة ١٧٢)

فَقَدِمُوا عَلَيَّ عُمَالِي، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بَيْعَتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَيَّ شِيعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ

(١) التائب: الافرصاد.

(٢) حَبِيس: فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وكل واحد من نساء النبي كانت محبوسة لرسول الله لا يجوز لاحد أن يمسه بعده كأنها في حياته.

(٣) القتل صبراً: أن تحبس الشخص ثم ترميه حتى يموت.

غَدْرًا، وَطَائِفَةٌ عَضُّوا عَلَى أَسْيَافِهِمْ (١) فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ. (خطبة ٢١٧)

وكل ذلك جعل قتال هؤلاء القوم أمرا لا بد منه، فبعد أن مثّلوا بالوالي وقتلوا المعارضين لهم أصبح بيت مال المسلمين بأيديهم، واستتبت تقريبا لهم الأمور في هذا المِصر، والبصرة ليست هدفهم الاساسي بل هي خطوة على الطريق الموصل لخلافة المسلمين العامة، ولو لم يقض الإمام عليه السّلام عليهم لكانت خطوتهم التالية الكوفة بلا شك، عملاً بمشورة معاوية.

يقول عليه السّلام في وجوب قتالهم:

فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهٗ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ. (خطبة ١٧٢)

فالموقف هنا لا يحتمل الاجتهاد، وخاصة أن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان قد أخبره بأنه سيقاقل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين، وهؤلاء القوم هم الناكثون الذين نكثوا ببيعة الإمام عليه السّلام بعد إبرامها وإقرارها.

فبالرغم من قيام الحجة عليهم، وبالرغم من إخبار النبي له، كان عليه السّلام يحاول إبعاد شبح الحرب بكل طريقة ممكنة، فتارة بإرسال الرّسل، وأخرى بكتب الكتب واعظاً لهم، وحتى بعد أحداث البصرة وما فعلوه بها، كان عليه السّلام يأمل في إقناعهم بالرجوع عن غيهم، ولكن دون جدوى، وهو يحكي عن محاولة إستتابتهما قبل حرب الجمل:

وَلَقَدْ اسْتَبْتَبْتُهُمَا (٢) قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوُقَاعِ (٣) فَعَمَّطَا النَّعْمَةَ (٤) وَرَدَّا الْعَافِيَةَ. (خطبة ١٣٧)

وعندما لم ينفع النصح والإرشاد، كان لا بدّ من اللجوء الى الوسيلة الوحيدة المتبقية، وهي الحرب التي لا هوادة فيها، وبهذا يقول عليه السّلام:

مَالِي وَلِقْرِيش! وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَأَقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمْ الْيَوْمَ. (خطبة ٣٣)

والتعبير هنا بلفظ «قريش» عن الناكثين فيه مغزى عميق، وهو أن هؤلاء بفعالته هذه كانوا ينقادون لعصبيتهم القبلية، تماما كما كانوا في الجاهلية، فالإمام عليه السّلام يضع قريشاً في جهة، ويضع نفسه وبني هاشم في الجهة الأخرى،

(١) العض على السيوف: كناية عن الصبر في الحرب وترك الاستسلام.

(٢) اسْتَبْتَبْتُهُمَا: من تاب (بالثاء) إذا رجع، أي استرجعتهما. وطلبت اليهما الرجوع للبيعة.

(٣) أمام الوقاع ككتاب: قبيل الواقعة بالحرب.

(٤) عَمَّطَا النَّعْمَةَ: جَحَدَهَا.

وقريش التي رفضت الإعراف بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بداعٍ من عصبيتها هي نفسها اليوم ترفض خلافة عليّ، والسبب واحد. وموقف الإمام عليه السّلام أيضاً واحد، فهو قد قاتلهم كافرين وقتل صناديدهم حتى آمنوا، وهو الآن يذكرهم بما لاقوه على يديه في تلك الفترة ويتوعددهم بمثل تلك الايام.

موقف أهل الكوفة

في أثناء سير الإمام عليه السّلام إلى البصرة، كتب الى أهل الكوفة كتاباً يستحثهم على اللّحاق به لمجاهدة القوم الناكثين، وجاء في نهايته:

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ (١) قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا (٢) وَقَلَعُوا بِهَا وَجَاشَتْ (٣) جَيْشَ الْمَرْجَلِ (٤) وَقَامَتْ
الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ. (كتاب ١)

ثم أرسل عليه السّلام محمد بن جعفر، ومحمد بي ابي بكر الى الكوفة، ويحدّث ابن ابي الحديد:

لما قدم محمد بن جعفر ومحمد بن ابي بكر الكوفة، إستنفرا الناس، فدخل قوم منهم على أبي موسى الأشعري ليلاً - وكان عامل الإمام عليه السّلام على الكوفة - فقالوا له: أشر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين الى عليّ عليه السّلام فقال: أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأما سبيل الدنيا فأشخصوا معهما، فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج (٥)

وعندما وصل الى علي عليه السّلام خبر ما فعله ابو موسى، كتب اليه كتابا عنيفا يوبخه فيه ويتوعدده، وهذا نصه:

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ:

أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَاشْدُدْ مِنْزَرَكَ
وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ وَأَنْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَأَنْفُذْ وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَاْبَعُدْ، وَابْتَغِ اللَّهَ لَتُؤْتِيَنَّ حَيْثُ
أَنْتَ، وَلَا تُتْرَكْ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ (٦) وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قَعْدَتِكَ وَتَحْذَرَ مِنْ
أَمَامِكَ كَحَذْرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرَكَبُ جَمَلُهَا،
وَيُذَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا.

(١) دار الهجرة: المدينة.

(٢) قَلَعَ المكان بأهله: نبذهم فلم يصلح لاستيطانهم.

(٣) جَاشَتْ: غَلَتْ واضطربت. والجيش: الغليان.

(٤) الْمَرْجَلُ: القدر.

(٥) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ - ص ٩

(٦) الخاثر: الغليظ، والكلام تمثيل لاختلاط الامر عليه من الحيرة، وأصل المثل «لايدري أيختر أم يذيب»

**فَاعْقِلْ عَقْلَكَ (١) وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيبَكَ وَحَظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ وَلَا فِي نَجَاةٍ،
فَبِالْحَرِيِّ (٢) لَتُكْفَيْنَنَّ (٣) وَأَنْتَ نَائِمٌ، حَتَّى لَا يُقَالَ: أَيْنَ فَلَانٌ؟ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، وَمَا أَبَالِي
مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلَامُ. (كتاب ٦٣)**

والذي نريد التروّي عنده هنا، هو موقف ابي موسى الأشعري من الإمام عليه السّلام، فما دام الإمام عليه السّلام قد أقرّه على الكوفة وولّاه إياها، وما دامت طاعة الإمام عليه السّلام لازمة في عنقه، فلماذا يقف هذا الموقف المعادي محاولاً تثبيط الناس عنه؟

لا نجد جواباً لذلك إلا أن يكون أبو موسى خيطاً من خيوط المؤامرة التي حاكها الثلاثة بإرشاد وتوجيه من معاوية، فالأحداث المتوالية تدل بوضوح على اشتراك الأشعري مع الثلاثة، فليس من قبيل الصدفة أن يطابق احتجاج الأشعري احتجاج الثلاثة، فعندما أغلظ موفدا الإمام عليه السّلام للأشعري القول بسبب تحبيطه الناس عن اللّحاق بالإمام عليه السّلام، قال لهما: «والله ان بيعة عثمان لفي عنقي وأعناقكما، لو أردنا قتالاً ما كنّا لنبدأ بأحد قبل قتله عثمان» (٤). وكأنه ينطق بلسان واحد من الثلاثة.

عندما نقول ان معاوية هو المدبّر والمرشد لهذه المؤامرة، لا يكون هذا القول إجحافاً أبداً، إذ أن الشواهد التاريخية هي التي أقنعتنا بهذا القول، لأن كتاب معاوية إلى الزبير قد نُفِذَ بحذافيره، أولم يشر معاوية عليهم بالمجاهرة بالطلب بدم عثمان؟ أولم يشر عليهم بضم البصرة والكوفة قبل كل شيء؟ أما البصرة فقد ساروا إليها، وأما الكوفة فقد تأمروا مع وإيها الأشعري، ولذلك منع الناس من اللّحاق بعليّ كي لا يحاربوا رفاقه المرابضين على مشارف البصرة.

وكادت المؤامرة أن تنجح، لولا ان تمكن الإمام عليه السّلام من إفساد الأمر عليهم في الكوفة إذ أنه أرسل إليها ابنه الحسن وعمّار بن ياسر وآخرين، وحملهم كتاباً جاء فيه:

**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي (٥) هَذَا: إِمَّا ظَالِمًا، وَإِمَّا مَظْلُومًا، وَإِمَّا بَاغِيًا، وَإِمَّا مَبْغِيًا عَلَيْهِ.
وَأَنَا أَذْكَرُ اللَّهِ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَى (٦) فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِنًا أَعَانِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا
اسْتَعْتَبَنِي. (كتاب ٥٧)**

وأنت الأخبار عليّاً باختلاف الناس في الكوفة، فقال للأشتر: أنت شفعت لأبي موسى أن أقرّه على الكوفة، فاذهب

(١) اعقل عقلك: قيده بالعزيمة، ولا تدعه يذهب مذاهب التردد من الخوف.

(٢) بالحرى: أي بالوجه الجدير بك.

(٣) لتكفين بلام التأكيد ونونه أي: إنا لنكفيك القتال ونظفر فيه.

(٤) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ - ص ٩

(٥) لحي: موطن القبيلة أو منزلها.

(٦) ما نفر إلي: بتشديد «لما» وتقديره «إلى».

فأصلح ما أفسدت. فقام الأشر وشخص نحو الكوفة حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمر بقبيلة إلا دعاها، وقال: أتبعوني الى القصر، حتى وصله فإقتحمه وأبو موسى حينئذ يخطب الناس على المنبر ويثبطهم، وعمار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول له: إعتزل عملنا وتنح عن منبرنا لا أم لك (١)

وعندما علم بالأمر جاء الى القصر فصاح به الأشر: «أخرج من قصرنا لا أم لك، أخرج الله نفسك، فوالله إنك لمن المنافقين».

وبذلك فسد أمر ابي موسى ومن هم وراءه، وخرج من الكوفة إثنا عشر ألف رجل يغدون السير لملاقاة ابن ابي طالب، وكان لهم الفضل الكبير في إنتصاره على أعدائه، لذلك كتب اليهم بعد فتح البصرة يشكرهم:

وَجَزَاكُمُ اللّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ. (كتاب ٢)

نهاية المطاف

نهاية مطاف الناكثين كانت في حرب الجمل الشهيرة، التي ذهب ضحيتها الآلاف من المعسكرين، وإنتهت بانتصار الإمام عليه السلام عليهم، وقُتل فيها طلحة والزبير رأسا الفتنة، وقد سار الإمام عليه السلام في المنهزمين سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يحدثنا عما فعله معهم عندما يقول:

فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُذْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. (كتاب ٢٩)

وعندما مرّ عليه السلام على طلحة وهو قتيل قال في لهجة المحزون:

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا، أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ قُرَيْشٌ قَتَلَى تَحْتَ بَطُونِ الْكَوَاكِبِ، أَدْرَكْتُ وَثْرِي (٢) مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا (٣) أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوُقِصُوا (٤) دُونَهُ. (خطبة ٢١٨)

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٤ - ص ٢٠

(٢) الوثر: الثأر.

(٣) أتلعوا: أي رفعوا أعناقهم ومدّوها لتناول أمر، وهو مناوأة أمير المؤمنين على الخلافة.

(٤) وقصوا: أي كسرت أعناقهم، دون الوصول إليه.

الفصل التاسع:

القاسطون

القاسطون هم الفئة الثانية التي أُخبر الإمام عليه السلام انه سيقاثلها، وهم معاوية واصحابه.

البداية مع معاوية

سبق وذكرنا أن من أهم اسباب الثورة على عثمان، هو جور ولاته وفسقهم. وعندما بويع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، كانت أولى وأهم خطته الإصلاحية هي عزل هؤلاء الولاة الذين لا يرضى عنهم الله ولا رسوله ولا المؤمنون، ومن هؤلاء الولاة معاوية.

كان معاوية قد تولى على الشام بعد مضي خمس سنوات من أول خلافة عمر، وإستمر حتى آخر خلافته. وعندما جاء عثمان أقره على عمله، فبقي طيلة فترة خلافته، وهذه المدة الطويلة على الشام -سبعة عشر سنة - كانت كافية لمعاوية لتثبيت قدميه وتوطيد ملكه.

كتب الإمام عليه السلام في أوائل خلافته الى معاوية يأمره بمبايعة أهل الشام له، ويدعوه بالقدوم اليه، وهذا نصّ كتابه:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ، فَبَايِعْ مَنْ قَبْلَكَ (١) وَأَقْبَلِ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ، وَالسَّلَامُ. (خطبة ٧٥)

ولم يتفاجأ معاوية بكتاب عليّ عليه السلام اليه، بل كان يتوقعه ولذلك فقد أعدّ العدة للتصرف عند وصول أمر الإمام عليه السلام اليه. الفكرة الأساسية في ذهنه، هي أنه لن يبايع مهما كلف الأمر لأنه يعلم يقيناً انه إن بايع للإمام عليه السلام وقدم عليه كما طلب، فانه عليه السلام سوف يجرده من كل ما جمعه طيلة فترة حكمه على الشام، فهو لم يخف عليه قول الإمام عليه السلام في الأموال التي أقطعها عثمان:

وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النَّسَاءِ، وَمَلَكَ بِهِ الْأَمْوَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ. (خطبة ١٥)

(١) قَبْلَكَ أَي: عِنْدَكَ.

وكانت الفكرة أن يحرض طلحة والزبير على الإمام عليه السّلام عسى أن يتمكنوا من نقض بيعته، أو على الأقل يشغلاه عنه فترة من الزمن، وهو يعرف انهما ساخطان على الإمام عليه السّلام وبيعته، أما أولاً: فلأن الإمام عليه السّلام قد تولى المنصب الذي كانا يطمحان به، والذي بذلا الجهد الجهد من أجله. وثانياً: أنهما بايعا بعد ان فاتتهما الخلافة عسى أن يشاركما في الأمر، أو يوليها بعض الأعمال، ولكنه عليه السّلام لم يجعل لهما ذلك. فمن الطبيعي بعد هذا أن ينقما عليه ويكرها بيعته، وقد استفاد معاوية من ذلك فأرسل اليهما الكتاب الذي تقدم ذكره والذي يحرضهما فيه على نقض البيعة، زاعماً لهما أنه قد بايع لهما في الشام بالخلافة.

وبالطبع فإن معاوية لم يبايع لهما بالشام، إذ لم يحدثنا التاريخ بذلك، ولكنه دفع بهما الى مواجهة عليّ وجلس ينتظر، فإن تغلبا على عليّ عليه السّلام وإستوليا على الخلافة، فإن له نصيبه من الأمر، وإن تمكّن الإمام عليه السّلام منهما فيكون قد استفاد من فترة إنشغال الإمام عليه السّلام بهما، عسى أن يرتب أموراً، أثناء ذلك. وهكذا كان، فقد إنشغل الإمام عليه السّلام بطلحة والزبير، بعد أن انضمت اليهما عائشة، فكانت أحداث البصرة ثم وقعة الجمل حيث كان نهاية أمرهم. وطوال هذه الفترة كان معاوية يحرض الناس على قتل عثمان متهماً فيه علياً، وبذلك أقنع أهل الشام انّ بيعة الإمام عليه السّلام غير صحيحة فلا تلزمهم.

حقيقة معاوية

في هذه الفقرة الموجزة، ننقل بعض أقوال الإمام عليه السّلام في حق معاوية، فمما قال فيه:

وَاللّٰهُ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذْهَىٰ النَّاسِ.
(خطبة ٢٠٠)

وفي كتاب له عليه السّلام الى معاوية:

وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ. (كتاب ٢٨)

وفي كتاب له عليه السّلام في التفاضل على معاوية، وان يكن ليس هناك مجال للمفاضلة:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ مَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَا اسْتَقَمْنَا وَفْتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرَهَا. (كتاب ٦٤)

ومن كتاب آخر له:

فَقَدْ سَلَكْتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِإِدْعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ (١) وَالْأَكَاذِيبِ، وَبِإِتِّخَالِكَ مَا
قَدْ عَلَا عَنْكَ وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدْ اخْتُزِنَ (٢) دُونَكَ. (كتاب ٦٥)

وبعد، فهذه الأوصاف لو اجتمعت في شخص، لما استحق ان يسمى مسلماً، أو يدخل في جماعة المسلمين، فكيف بأن يكون خليفتهم وأميرهم؟

الدعوة للمبايعة من جديد

عندما انتهى عليه السلام من فتنة أصحاب الجمل، نزل الكوفة، وعاد إلى معاوية يطالبه بالبيعة، فأرسل إليه جرير بن عبدالله البجلي ليكلمه، وحمله كتاباً جاء به:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ
يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ
إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضَى، فَإِنِ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْنٌ أَوْ بَدْعَةٌ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ
أَبَى قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى. (كتاب ٦)

وفي هذا تهديد لمعاوية بأنه غير متروك حتى يبايع، وإلا فقتاله أمر لا بد منه لتؤخذ منه البيعة بالقوة، ولكن معاوية لم يجب بشيء لا بالمبايعة ولا بالرفض، بل أخذ يماطل رسول الإمام عليه السلام إليه، فاستبقاه عنده أربعة أشهر، حتى سئم قوم الإمام عليه السلام ومّوا الانتظار فكلموه بأن يسير إلى معاوية، فأجابهم عليه السلام:

إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٍ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ،
وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرْبِ جَرِيرٍ وَقْتاً لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعاً أَوْ عَاصِياً. (خطبة ٤٣)

وكان عليه السلام قد كتب الى جرير وهو في الشام بأن لا يجاري معاوية في مماطلته إذ انها لا توصل إلى نتيجة، وفيما يلي نص الكتاب:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ (٣) وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيْرُهُ بَيْنَ حَرْبِ
مُجَلِيَّةٍ (٤) أَوْ سِلْمِ مُخْزِيَّةٍ فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ (٥) وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بِيَعْتِهِ. (كتاب ٨)

(١) المين: الكذب.

(٢) اختزن أي: منع دون الوصول اليك

(٣) الفصل: الحكم القطعي.

(٤) حرب مجلية: أي مخرجة له من وطنه

(٥) فانبذ إليه: أي اطرح إليه عهد الامان وأعلنه بالحرب، والفعل من باب ضرب

ولكن مراوغة معاوية ومماثلة الرسول إستمرت أربعة أشهر كان خلالها قد رتبّ أموره فقام بخطوات مهمّة بالنسبة اليه. فمنها أنه قام بجسّ نبض أهل الشام ليرى إن كانوا على استعداد للقيام بالمطالبة بدم عثمان، وقد أجابوه الى ذلك. ومنها أنه كتب الى بعض الأمصار الأخرى أن يساندوه في حربه مع الإمام عليه السّلام أو على الأقل يضمن عدم مساندتهم له. ومنها - ولعله أهم ما قام به - أنه استقدم عمرو بن العاصّ اليه.

وصف الإمام عليه السّلام لابن العاصّ

لقد كان لابن العاصّ أثر كبير في تقرير مسار الحرب بين عليّ ومعاوية، وفيما يلي نذكر بعض كلمات الإمام عليه السّلام في وصفه. قال عليه السّلام وقد بلغه أن عمرو بن العاصّ يقول إن في عليّ دعاية:

عَجَباً لِبْنِ النَّابِغَةِ ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِي دُعَابَةٍ وَأَنِّي أَمْرٌ تَلْعَابَةٌ (١) أَعَافِسُ وَأُمَارِسُ (٢) ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ أَثَمًا. أَمَا وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُسْأَلُ فَيَبْخُلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ (٣) وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ (٤) ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَأْخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرَ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ (٥) ... إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أَتِيَةً (٦) وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً. (خطبة ٨٣)

فالإمام عليه السّلام في كلامه هذا يفضح ابن العاصّ في ثلاثة أمور، يكفيها واحدة منها لتجعله محتقراً.

الأمر الأول انه ابن نابغة. ذكر الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار: كانت النابغة أم عمرو بن العاصّ أمة لرجل من عنزة، فسببت فاشتراها عبدالله بن جدعان التيمي بمكة، فكانت بغياً ثم أعتقها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، وأمّية بن خلف الجمحي، وهشام بن المغيرة المخزومي، وأبو سفيان بن حرب، والعاصّ بن وائل السهمي في ظهر واحد، فولدت عمروا، فادّعاه كلهم فحكمت أمة فيه فقالت: هو من العاصّ بن وائل وذلك لأن العاصّ بن وائل كان ينفق عليها كثيراً.

الأمر الثاني: كشفه سوءته يوم صفين لينجو من سيف عليّ عليه السّلام، ذكر نصر بن مزاحم في كتابه (صفين): لما اختلطت الصفوف - يوم صفين - لقي عمرو بن العاصّ علياً فحمل عليه برمحه، فتقدم عليّ عليه السّلام وهو مختلط سيفاً معتقلاً رمحاً، فلما رفق هزّ فرسه ليعلو عليه، فألقى عمرو بن العاصّ عن فرسه إلى الأرض شاغراً برجليه،

(١) تلعباة بكسر التاء: كثير اللعب.

(٢) أعافس: أعالج الناس وأضاربهم مزاحاً، ويقال: المعافسة: معالجة النساء بالمغازلة والممارسة كالمُعافسة.

(٣) يُلْحِفُ: أي يلج.

(٤) الالّ بالكسر: القرابة، والمراد من قطع الالّ أن يقطع الرحم.

(٥) السبّة بالضم: الاست.

(٦) الاتيّة: العطية.

كاشفاً عورته، فانصرف عنه لافتاً وجهه مستديراً له.

الأمر الثالث: بيعه دينه لمعاوية مقابل مصر. ذكر ابن أبي الحديد أن معاوية إستشار أخيه عتيبة بن ابي سفيان- وذلك لما أتاه كتاب علي عليه السّلام يدعوه للبيعة- فقال له: إستعن بعمر بن العاص فإنه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته وهو لأمرك اشد اعتزلاً الا ان يثمن له دينه فسيبيحك، فانه صاحب دنيا.

مساومة عمرو بن العاصّ

عمرو بن العاص لا يقلّ دهاءً عن معاوية لذلك إختاره ليكون له سندا في حربه مع علي ولكن عمرو أشترط عليه أن يقطعه مصر ثمنا لذلك، فوافق معاوية، وقد فضح الإمام عليه السّلام هذا الإتفاق وما دفع ثمنا له حيث يقول في حق عمرو:

وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا، فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْمُبَايِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ.
(خطبة ٢٦)

وفي كتاب للإمام يوبّخ فيه عمروا، كتب عليه السّلام:

فَأَنَّكَ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِلدُّنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرِ غِيَّةٍ، مَهْثُوكِ سِئْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلَاطِهِ، فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، اتَّبَاعَ الْكَلْبِ لِلضَّرْغَامِ (١) يَلُودُ إِلَى مَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيستِهِ، فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ. (كتاب ٣٩)

ماذا يريد معاوية

مطامع معاوية لا تنحصر في الشام، فهو كان يتطلع الى خلافة المسلمين العامة، وكان يأمل أن تصل اليه بعد مقتل عثمان - وسنثبت هذا الكلام في حينه - وأما وقد فاتته الخلافة العامة فليرض بالشام مؤقتا بالإضافة الى مصر لأنه كان قد وعد بها ابن العاص. فطرح هذا الرأي على جرير- وكان لا يزال عنده - فأقترح عليه أن يكتب الى الإمام عليه السّلام «أن يجعل لي الشام ومصر جباية، فاذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعه وأسلم له هذا الأمر» (٢)

ولكن الإمام عليه السّلام بالطبع رفض هذا الإقتراح. وبالرغم من هذا الرفض فإن معاوية لم يسأم بل كتب الى الإمام عليه السّلام ثانية يطلب إليه الشام فكان جواب الإمام عليه السّلام أن كتب اليه:

(١) الضّرغام: الاسد

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٣ - ص ٨٤

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ. (كتاب ١٧)

وهذا الرفض المتكرّر من لم يكن ليثني معاوية عمّا أَرَادَهُ، فبعد أن ذاق حلاوة المُلك طيلة سبعة عشر سنة، لم يكن من السهل عليه أن يتركه ويتجرّد من كل ما ادّخره ليعيش حياة الإنسان العادي المأمور بعد أن كان هو الأمر.

وكان إحتجاجه في إدعائه عدم لزوم بيعة الإمام عليه السّلام له يتلخص في نقطتين. النقطة الأولى، إدعاء عدم لزوم بيعة الإمام عليه السّلام له لأنها لم تكن عن رضى كافة المسلمين. والنقطة الثانية: إتهام الإمام عليه السّلام بدم عثمان. وقد أجاب الإمام عليه السّلام عن كلا النقطتين، وفيما يلي نستعرضهما بالتفصيل.

تامة بيعة الإمام عليه السّلام

ذكرنا فيما سبق كيفية مبايعة الناس لعليّ بعد مقتل عثمان، وقد تبين أنها أشمل بكثير من بيعة أبي بكر، حيث أن بيعته قد فرضتها فئة خاصة من الصحابة على بقية النّاس، بينما بيعة الإمام عليه السّلام كانت من النّاس مباشرة، فهي تتحلّى بكثير من الديمقراطية، وبالرغم ذلك فإن معاوية يرفضها بإدعائه أنها غير تامة فلا تلزمه، فالذين بايعوه حتى لو كانوا كل الناس فإن مبايعتهم لا تلزمه بشيء طالما أنه لم يبايع، وطالما أنّ أهل الشام يدينون له بالطاعة، فيحتج عليه الإمام عليه السّلام فكتب إليه:

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضَى، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْعَنَ أَوْ بَدَعَةَ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى. (كتاب ٦)

ومن كتاب آخر له ايضا:

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُتَنَّى فِيهَا النَّظَرُ وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي (١) فِيهَا مُدَاهِنٌ. (كتاب ٧)

ويقول عليه السّلام في خطبة له:

وَلَعَمْرِي، لَئِنْ كَانَتْ الْإِمَامَةُ لَا تَتَّعَدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. (خطبة ١٧٣)

ففي هذا الكلام ردّ قاطع على ما يحتجّ به معاوية، فاذا ما تمت مبايعة أهل الحِلّ العقد، فليس للذين شهدوا البيعة أن يتراجعوا وينقضوها - كطلحة والزبير وأتباعهما - كما ليس للغائب الذي لم يحضرها أن يدّعي أن البيعة لا تلزمه -

(١) المُرَوِّي: هو المتفكر هل يقبل الشيء أو ينبذه.

كعاقبة - وإذا ما ادعى أحد ذلك فإن الواجب على المسلمين أن يجاهدوه حتى يدخل فيما فيه الناس. وأما إن لا تتعد البيعة إلا بحضور كافة المسلمين فهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً.

والذي تجدر الإشارة إليه هنا أن احتجاج الإمام عليه السلام إنما هو من قبيل إلزام الخصم بما ألزم به نفسه فلا يعني أبداً أنه يعتقد بأن الطريق الصحيح للخلافة إنما هو بمبايعة الناس، إذ تقدم معنا أن الخلافة منصب إلهي يعينه النبي بنفسه.

التبرؤ من دم عثمان

نجح معاوية في إقناع أهل الشام أن عثمان قُتل مظلوماً، وأنه هو المسؤول عن المطالبة بدمه لمكان قرابته منه. فالتفت حوله أهل الشام وبايعوه على المطالبة بدمه، فاغتنمها معاوية فرصة ليثير الناس على عليّ عليه السلام بأن جعله مسؤولاً عن تسليم قتلة عثمان، فكتب إلى الإمام عليه السلام: «وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين» (١)

وجعل يكرر طلبه هذا ويصرّ عليه، وكان الإمام عليه السلام يجيبه في كل مرة بالرفض، فكتب إليه مرة:

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ
وَلَا إِلَى غَيْرِكَ. (كتاب ٩)

وكتب إليه ثانية، فاضحا غايته الحقيقية من المطالبة بدم عثمان، حيث يقول عليه السلام:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبُهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً. (كتاب ١٠)

وفي كتاب ثالث كتب إليه:

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتْلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيْمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى
كِتَابِ اللَّهِ. وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ. (كتاب ٦٤)

لو أراد معاوية بالفعل المطالبة بدم عثمان والإقتصاص من قتلته لوجب عليه البدء بطلحة والزبير، حيث كانا - كما قدمنا - من أشد المحرّضين عليه، ولكنه على العكس من ذلك إتخذهما له عوناً وبايع - كما يزعم - لهما بالخلافة. فما يريد معاوية هو شيء وراء ذلك، أنه يريد من الإمام عليه السلام إقراره على الشام، وما مطالبته بدم عثمان إلا وسيلة إتخذها لتحقيق ذلك، فكأنه يريد تهديد الإمام عليه السلام بأنه إذا لم يترك له ما أراد فانه سيواجه متاعب كثيرة مع أهل الشام المطالبين بدم عثمان المقتول ظلماً، ولكن أتى لابن أبي طالب أن يخضع للتهديد.

وإزاء رفض الإمام عليه السّلام المتكرر تسليم قتلة عثمان، إنتقل معاوية الى الخطوة التالية، وذلك بأن جعل الإمام عليه السّلام موضع التهمة، حيث أن قتلة عثمان بين يديه- كما يزعم معاوية - وهو يدافع عنهم ويرفض الإقتصاص منهم، وأي تبرير لذلك إلا ان يكون راضياً عن فعلهم أو ربما شريك لهم؟

وهذا الرفض المتكرر أعطى معاوية فرصة عظيمة لإقناع أهل الشام بأن الخليفة الجديد مشارك بدم عثمان، لذلك يجب رفض بيعته وقاتاله كأبي متهم آخر، فأخذت كتب معاوية تتوالى على الإمام عليه السّلام، فكتب اليه مرة: «ثم لم تكن أشد منك حسدا لابن عمك عثمان، نشرت مقابحه وطويت محاسنه وطعنت في فقهه، ثم في دينه، ثم في سيرته ثم في عقله، وأغريت به السفهاء من أصحابك وشيعتك، حتى قتلوه بمحضر منك، لا تدفع عنه بلسان ولا يد». (١)

وفي كتاب آخر كتب معاوية: «ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف». (٢)

لقد أصبح الإمام عليه السّلام نتيجة مغالطات معاوية، في موضع التهمة بنظر أهل الشام حتى أنه أصبح بحاجة الى تبرير ساحته، ولهذا كتب الى معاوية:

وَلَعْمَرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلَةٍ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى، فَتَجَنَّنَ مَا بَدَأَ لَكَ. (كتاب ٦)

وفي جواب على كتاب معاوية السابق، كتب عليه السّلام:

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمْ مَنْ بَدَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ وَاسْتَكْفَهُ (٣) أَمْ مَنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَخَى عَنْهُ بَثَّ الْمُنُونِ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَى قَدْرَهُ عَلَيْهِ. (كتاب ٢٨)

ففي نفس الوقت الذي يدافع به الإمام عليه السّلام عن نفسه ويثبت براءته، نراه يتهم معاوية بالمشاركة بقتل عثمان، فالمشاركة - كما قلنا - ليس من الضروري ان تكون بالمباشرة، بل يكفي في مسماها القعود عن المناصرة.

روى البلاذري كما في شرح ابن ابي الحديد: «لما أرسل عثمان الى معاوية يستمده، بعث يزيد بن أسد القصري وقال له: إذا أتيت ذا خشب فأقم بها، ولا تتجاوزها، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فإنني أنا الشاهد وانت الغائب. فأقام بذئ خشب حتى قُتل عثمان، فاستقدمه حينئذ معاوية، فعاد الى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه». (٤)

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ١٥ - ص ١٨٦

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٣ - ص ٨٨

(٣) استكفّه: طلب كفه عن الشيء.

(٤) شرح ابن ابي الحديد ج ١٦ - ص ١٥٤

والى هذا أشار الإمام عليه السلام بخذل معاوية لعثمان، وقد أراد ان يبقى خارجا لسبب يتضح لنا بعد قليل، ومن كتاب آخر إلى معاوية يقول عليه السلام فيه:

فَأَنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ. (كتاب ٣٧)

وهذا العبارة توضح معاوية في نقطتين الأولى: أن معاوية خذل عثمان حين كان بحاجة الى نصرته، والثانية: أنه قام يطالب بدمه وينتصر له حين رأى أن ذلك يدعمه ويساعده من أجل جمع الناس حوله.

وأما سبب قعود معاوية عن نصره عثمان - بالرغم من أنه كان أول المستفيدين منه - هو نفس السبب الذي دعا طلحة والزبير للتحريض عليه، أي الطمع بالخلافة. فمعاوية أيضا كان يطمع بالخلافة، ففي تنمة حديث البلاذري السابق الذي نقلناه عن شرح ابن ابي الحديد نجده يقول في تبرير موقف معاوية من عثمان: وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمان فيدعو الى نفسه.

وكان معاوية يقول «انه ليس أحد أقوى مني على الإمارة». وطمع معاوية بالخلافة بدأ منذ ذلك اليوم الذي دعا فيه عثمان ولاته للتشاور فيما يجب فعله لإخماد نقمة الناس عليه، وكان معاوية قد أشار عليه بمرافقته الى الشام، أو بأن يرسل اليه جيشاً يحميه، ولكنه رفض، حينذاك قال له معاوية: والله لثُغْتالَنَّ. فقال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل. (١) فمنذ ذلك اليوم عرف معاوية أن عثمان مقتول، وكان يرى نفسه أولى الناس بالأمر بعده، فالشام بيده وأهلها على طاعته، وليس أحد من ولاة عثمان مثله.

ولكن ما حدث أن الناس بايعوا عليًا، فكانت صدمة عنيفة لمعاوية فخرج يطالب بدم عثمان.

وجوب قتال القاسطين

بعد أن أوضح عليه السلام ضلال معاوية ومن اتبعه، وأن بيعته لازمة في أعناقهم، خلص من ذلك الى أن قتالهم واجب لا يمكن التهرب منه، فكان يقول لأصحابه:

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ (٢) وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرِ لِي إِلَّا الْقِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ. (خطبة

(٤٣)

وقال أيضا:

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ١٣٩

(٢) وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ: مَثَلٌ تَقُولُهُ الْعَرَبُ فِي الْأَسْتِقْصَاءِ فِي الْبَحْثِ وَالتَّأْمَلِ وَالفكر.

قَلَبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعَنِي إِلَّا قِتَالَهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. (خطبة ٥٣)

يشير في ذلك الى إخبار النبي له بأنه يقاتل بعده الناكثين والقاسطين والمارقين، وهذا الإخبار في الحقيقة هو عبارة عن أمر له بذلك. وكان الإمام عليه السلام يدرس الوضع الذي هو فيه محاولاً إيجاد المخرج الذي يُبعد شبح الحرب ويعفيه منها، ولكنه في كل مرة كان يجد أن الحرب هي القرار الوحيد الذي يجب سلوكه، بل كانت تفرض نفسها عليه فرضاً، بالرغم من محاولاته الكثيرة لإيجاد مخرج غيرها. فنراه يكتب الى معاوية المرّة تلو الأخرى في محاولة لإقناعه بالرجوع عن غيّه، ومن جملة ما كتب اليه عليه السلام:

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَاَنْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذِرُ بِجَهَالَتِهِ. (كتاب ٣٠)

وكتب اليه ايضاً:

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَانِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ. (كتاب ٣٢)

الى غير ذلك من المواعظ التي لن نطيل بذكرها، ولكن معاوية لم يكن يزداد إلا إصراراً على موقفه، فكان يردّ على الإمام عليه السلام واعظاً إياه بدوره بالرجوع عن غيّه. وذلك كله لم يكن ليدخل اليأس الى قلب الإمام عليه السلام، فاستمرّ في محاولاته لحقن الدماء، فكتب الى معاوية وقد دعاه الى الحرب:

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ (١) عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُعْطَى عَلَى بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ شَدْخَاً (٢) يَوْمَ بَدْرٍ، ذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي. (كتاب ١٠)

إقتراح منصف من الإمام عليه السلام، أن يتبارز مع معاوية وأي الشخصين كانت له الغلبة فانه يكون الخليفة، وفي الحالتين تُحقن دماء المسلمين، وبطبيعة الحال رفض معاوية هذا العرض فهو يعرف سيف ابن أبي طالب، ويدرك أن لا أمل له معه.

وعندما التقى عسكر عليّ عليه السلام بعسكر معاوية في صفين، أوصى عليه السلام عسكره فقال:

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعُورًا (٣) وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ. (خطبة ١٤)

(١) المرين بفتح فكسر: اسم مفعول من رانَ ذنبه على قلبه: غلب عليه فغطى بصيرته.

(٢) شدخاً: أي كسراً في الرطب.

(٣) المُعُور كـمجرم: الذي أمكن من نفسه وعجز عن حمايتها، وأصله أَعُورَ: أبدى عورته.

وكل ذلك في محاولة للإقتصار على أقل عدد من الضحايا. ويمكننا تلخيص موقف الإمام عليه السّلام ومعاوية ورأي كل منهما في الحرب، بما كتبه عليه السّلام الى أهل الأمصار يقصّ عليهم ما جرى يوم صفين:

فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ (١) وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمَعَ، فَفَقَوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ. فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ. (خطبة ٥٨)

لقاء صفين

إذا كانت وقعة الجمل قد أنهت أمر الناكثين، فإن وقعة صفين قد خلقت أعداء جدد للإمام كانوا أشدّ عليه من معاوية وأصحابه، حتى أنهم ألوهه عن معركته الأساسية ضد القاسطين، أولئك هم الخوارج.

ففي صفين، عقيب ليلة الهرير وبعد أن ظهرت علامات الإنكسار والهزيمة في جيش الشام وأدرك معاوية أن نهاية القتال ليست لصالحه وأن نهايته باتت أكيدة وقريبة، جاء الى شريكه عمرو بن العاص يستشيريه فيما يجب فعله، وكان عمرو بن العاص قد حسب لهذه اللحظة حسابها وأعدّها لها خطتها، فاقترح على معاوية ما كان قد فكّر به حيث قال: «ألق الى القوم أمرا إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، أدعهم الى كتاب الله حكما بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك في القوم». «في القوم».

وقد حدث ما توقعه ابن العاص، فما أن أبرز أهل الشام المصاحف على رؤوس الرماح مطالبين أهل العراق بالنزول عند حكمها حتى وقع الخلاف في جيش عليّ عليه السّلام. قال ابن ابي الحديد: «فاختلف أصحاب علي عليه السّلام في الرأي، فطائفة قالت القتال، وطائفة قالت المحاكمة الى الكتاب ولا يحل لنا الحرب، وقد دُعينا الى حكم الكتاب، فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها». (٢)

وعلى الفور أدرك عليّ عليه السّلام إبعاد هذه المؤامرة الجديدة، فبادر قومه بقوله:

أيها الناس اني أحق من أجاب الى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص، وابن ابي معيط، وابن ابي سرح وابن مسلمة، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، اني أعرف بهم منكم، صحبتهم صغارا ورجالا، فكانوا شر صغار وشر كبار، ويحكّم أنها كلمة حق يُراد بها باطل، انهم ما رفعوها انهم يعرفونها ويعملون بها ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجامعكم ساعة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يُقطع دابر الذين ظلموا.

حينئذ جاءه عشرون ألفا من أصحابه ونادوه بإسمه لا بإمرة المؤمنين: «يا عليّ أجب القوم الى كتاب الله إذ دعين اليه، والا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنّها إن لم تجبهم». وحاول الإمام عليه السّلام إفهامهم بأن الأمر كله

(١) النائرة بالنون الموحدة: بمعنى النائرة بالتاء المثناة، وأصلها من ثارت الفتنة إذا اشتعلت وهاجت.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢١٠

خديعة وغدر ولكن أذاهم صُمّت عن سماع ما يقول، فقالوا: فابعث الى الأشتر لياتينك وكان الاشترا قد شارف على معسكر معاوية ليدخله.

ولن نطيل بذكر ما دار من الجدل والإحتجاج داخل معسكر أهل العراق فإن هذا محله الفصل التالي الذي نتحدث فيه عن الخوارج. ولكن ما يهمنا هنا أن نقول أن مكيدة عمرو بن العاص قد نجحت وتوقّف القتال نهائياً. ولم تمض أيام حتى تبين صدق ما أخبر به الإمام عليه السّلام من خديعة معاوية فكان لا بد من الرجوع للحرب.

موازنة بين القوى

وقفة قصيرة نحاول فيها إستيضاح مدى إستعداد كلا الفريقين لخوض معركة ثانية يكون فيها الحسم لصالح أحد الفريقين، فأيهما أكثر إستعدادا لمثل هذه الحرب، معسكر أهل الشام بقيادة معاوية، أم معسكر أهل العراق بقيادة عليّ عليه السّلام؟

بالنسبة لمعاوية فإنه رجع من صفين كما ذهب إليها، كله ثقة بنفسه وبقومه. وأما عليّاً فإنه عاد بجيش منقسم على نفسه، وقد حاول تنظيم أموره من جديد والعودة الى ما كانت عليه أحوال جيشه قبل الحرب، ولكنه لم يفلح، لأنّ الفئة التي خرجت عليه في صفين قد استمرت في موقفها حتى بعد أن تبين لها خديعة معاوية وضلاله، وكانت هذه الفئة - وهي التي تعرف بالخوارج - أشد عليه وأخطر من معاوية وأهل الشام، لذا إنصرف الإمام عليه السّلام لحربهم في الوقت الذي كان فيه معاوية يستردّ أنفاسه، ويعدّ نفسه من جديد لحرب حاسمة.

وعندما انتهى الإمام عليه السّلام من الخوارج والتفت الى معاوية من جديد كانت الظروف قد تغيرت كثيرا بالنسبة اليه. ففي الوقت الذي أنهكت فيه الحرب مع الخوارج جيشه كان معاوية يعزز إمكانياته بإستمالته بعض أصحاب الإمام عليه السّلام، وذلك بإغرائهم وترغيبهم، فكانوا يتسلّون اليه لينضموا الى صفوفه وعندما علم الإمام عليه السّلام بأمر هؤلاء كتب الى عامله على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري كتابا جاء فيه:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجَالًا مِمَّنْ قَبْلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غِيًّا (١) وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًّا. (كتاب ٧٠)

وقد فضح عليه السّلام سبب هروبهم الى معاوية فيقول في تنمة كتابه المتقدم:

وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ (٢) إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أَسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبُعْدًا لَهُمْ وَسُخْقًا. (كتاب ٧٠)

(١) غِيًّا: ضلالاً.

(٢) مُهْطِعُونَ: مسرعون.

وأما الباقيون مع الإمام عليه السلام فإنهم لم يكونوا خيراً من المتسللين، إذ لم يكن يُرجى منهم فائدة بسبب تشبّثهم وإختلافهم في الرأي، فهم حتى غير متفقين على مقاتلة معاوية وكل فريق منهم يذهب الى رأي ويعمل على طبقه، بخلاف قوم معاوية، وقد وبّخهم الإمام عليه السلام على ذلك وعيّرهم بقوم معاوية، فخطبهم بقوله:

وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ سَيِّدَ الْوَنِّ مِنْكُمْ (١) بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ. (خطبة ٢٥)

وقال أيضاً في استنهاض اصحابه:

فَيَا عَجَباً! عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرْحاً (٢) حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً (٣) يُرْمَى، يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ، وَتُغَزُونَ وَلَا تُغَزُونَ، وَيَعْصِي اللَّهُ وَتَرْضُونَ. (خطبة ٢٧)

وقد بلغ التفرق والتشتت في جماعة الإمام عليه السلام مبلغاً عظيماً، حتى كانوا كما يناديهم الإمام عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ، الْمَجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ كَلَامُهُمْ يُوهِي (٤) الصَّمَّ الصَّلَابَ (٥) وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمْ الْأَعْدَاءَ. (خطبة ٢٩)

بالإضافة الى تشتت آرائهم وأهوائهم، كانوا لا يستمعون الى إمامهم الا كفرد منهم، فلا يرون له حق الطاعة إذا أمر، ولا الإجابة له إن أراد. بينما في المقابل فإن قوم معاوية قد بايعوه على كل ما يريد، فلا يناقشوه في أمر ابدأ، ومع هذه الحال - لو استمرت - فإن النصر لمعاوية وقومه بلا شك، وبهذا يقول الإمام عليه السلام:

صَاحِبِكُمْ يُطِيعُ اللَّهُ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهُ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ. (خطبة ٩٦)

ونخلص من هذه الفقرة بأن معاوية يتفوق بنقطتين:

الأولى: هي إجتماع قومه وإتفاقهم على حرب أهل الكوفة.

والثانية: هي إطاعتهم العمياء له. بينما الإمام عليه السلام يفتقر الى هذين الأمرين، وهو يدرك مدى خطورتهم، لذلك تمنى لو ان معاوية يستبدله بقومه كل عشرة منهم بواحد من أهل الشام، قال عليه السلام:

(١) سَيِّدَ الْوَنِّ مِنْكُمْ: سيغلبونكم وتكون لهم الدولة بَدَلِكُمْ.

(٢) تَرْحاً بِالْتَحْرِيكِ أَي: هَمّاً وَحُزْناً.

(٣) الْغَرَضُ: مَا يَنْصَبُ لِيُرْمَى بِالسَّهَامِ وَنَحْوِهَا، فَقَدْ صَارُوا بِمَنْزِلَةِ الْهَدَفِ يَرْمِيهِمُ الرَّامُونَ.

(٤) يُوهِي: يُضْعَفُ وَيُقْنَتُ.

(٥) الصَّمُّ: جَمْعُ أَصَمٍ، وَهُوَ مِنَ الْحَجَارَةِ الصَّلْبِ الْمُصَمَّتِ، وَالصَّلَابُ: جَمْعُ صَلِيبٍ، وَالصَّلِيبُ: الشَّدِيدُ، وَبَابُهُ ظَرِيفٌ

وظَرِيفٌ، وَضَعِيفٌ وَضِعَافٌ.

لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَفَنِي بِكُمْ صَرَفَ الدِّينَارِ بِالدَّرْهَمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ. (خطبة ٩٦)

وبعد هذا فأي مجال يبقى للبحث عن مدى احتمالات النصر لدى كل من الفريقين؟

إستفزازات معاوية

هذا الوضع الذي شرحه الإمام عليه السّلام قد أدركه معاوية أيضا، لذلك سقطت هيبة الإمام عليه السّلام وقومه عنده، وزالت خشيتهم من قلبه، لذلك لم يكن يتحرّج من إستفزازهم كلما اراد، فيعقد الألوية ويرسلها لضرب كل من يدين لعليّ بالطاعة، وكان عليه السّلام يتوقع من معاوية ذلك، فأمر قومه بإستباق معاوية وغزوه قبل أن يغزوهم، ولكنه قد ابتلى بمن لا يطيع، وبعد غزو الأنبار من قبل عمّال معاوية، ذكرهم عليه السّلام بما كان قد أشار عليهم به، فقال:

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا، وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزَوْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزَوْكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا غَزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ (١) وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ وَمَلِكَتْ عَلَيْكُمْ الْأَوْطَانُ. (خطبة ٢٧)

قال ابن ابي الحديد: بعث معاوية بسر بن ارطأة الى اليمن في جيش كثيف، وأمره ان يقتل كل من كان في طاعة عليّ عليه السّلام. فقتل خلقا كثيرا. (٢)

كان لمعاوية غزوات كثيرة على أطراف البلدان التي تدين بالطاعة لعليّ، ولسنا هنا في معرض إستقصائها بأجمعها، بل نقصر منها على الغزوات التي نجد في نهج البلاغة تعليقا عليها، فمن هذه الغزوات تلك التي كانت على اليمن، وقد علم الإمام عليه السّلام بشأن هذه الغزوة قبل وصول الجيوش المغيرة الى اليمن، فقام خطيبا في قومه وقال:

أُنْبِئْتُ بُسْرًا قَدْ اِطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأُظُنُّ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ سَيَدَّالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبَادَائِهِمْ الْأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصَلَاحِهِمْ فِي بِلَادِهِمْ وَفَسَادِكُمْ... (خطبة ٢٥)

الى آخر كلامه في محاولة لحثهم على أن ينفروا الى اليمن لملاقاة الجيوش المغيرة، ولكن دون جدوى.

وغزوة أخرى لمعاوية كانت على الأنبار، ذكرها ابن ابي الحديد، فقال: أرسل معاوية الى سفيان بن عوف الغامدي وقال له: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فتقطعها، فإن وجدت بها جندا فأغر عليهم، والا فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جندا فامض حتى توغل في المدائن... فأقتل

(١) تواكلتم: وكل كل منكم الامر إلى صاحبه، أي لم يتولّه أحد منكم، بل أحاله كلٌّ على الآخر.

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ١ - ص ٣٤٠

من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، واضرب كل من مررت به من القرى، وأحرب الأموال، فان حرب الاموال شبيهه بالقتل، وهو أوجع للقلب. (١)

ونفذ سفيان ما أمره به مولاه، وزاد من عنده، فعاد الإمام عليه السلام يخطب قومه طالباً منهم التحرك وعارضاً أفعال معاوية، فيقول:

وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا (٢)، وَلَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةَ (٣) فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا (٤) وَقُلْبَهَا (٥) وَقَلَانِدَهَا، وَرِعَاثَهَا (٦) مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافْرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمٌ (٧) وَلَا أَرِيقَ لَهُمْ دَمٌ. (خطبة ٢٧)

ولكن موقف قومه لم يكن بأفضل مما سبق، فبدل أن تثير هذه الغارات فيهم الحماس لمجابهة معاوية، كانت على العكس من ذلك تثير في أنفسهم الرعب والخوف، فأخذوا يلونون الى معاوية، ويلتجئون اليه خوفاً من سيفه، تماماً كما أراد معاوية وكما توقع، فنجده يقول في حديثه السابق لسفيان: «إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم، وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر».

وإنصافاً لأهل العراق يجب ان نشير هنا الى ان موقفهم المتخاذل مع الإمام عليه السلام، كان وليد ظروف قاهرة أرغمتهم على ذلك، وإلا فليس من طباعهم الجبن والخوف، فهم كانوا من أشد الناس معه يوم الجمل، ولقد اعترف لهم بجميلهم عندما أرسل اليهم كتابا يشكرهم فيه، كما قدّمنا. وكذلك في حرب صفين ضد معاوية، وقد كادوا يحققون النصر النهائي بسيوفهم العنيدة لولا خديعة معاوية، ونفس الموقف وقفوه معه يوم النهروان عندما قضى على الخوارج بهم. ولكن هذه الحروب المتكررة قد أرهقتهم وأتعبتهم، لذلك كانوا يتهربون من الحرب مجدداً، وهذا ما أدركه عليه السلام فيهم، ولذا قال:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحِبُّ، حَتَّى نَهَكْتُكُمْ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكْتُ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنَّهُكَ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسِ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسِ نَاهِيًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ. (خطبة ٢٠٨)

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٨٥

(٢) المسالِحُ: جمع مَسْلِحَةٍ بالفتح: وهي الثغر والمرقب حيث يُخشى طروقُ الاعداء.

(٣) المعاهدَةُ: الذميمة.

(٤) الحِجْلُ بالكسر و بالفتح و بكسرين: الخلال.

(٥) القُلْبُ بضمّتين: جمع قُلْبٍ بالضم فسكون: السوار المصمّت.

(٦) الرعاث جمع رَعَثَةٌ وهو: ضرب من الخرز.

(٧) الكَلِمُ بالفتح: الجرح.

وبالنتيجة، لم يتمكن الإمام عليه السلام من تهيئة جيش يسير فيه الى أهل الشام، بالرغم من انه قضى بقية حياته في حثّ قومه على تنفيذ ما طلبه منهم، وكان يتألم لذلك أشد الألم حتى انه قال في قومه:

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَنِمْتُهُمْ وَسَنِمُونِي، فَأَبْدَلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدَلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي.
(خطبة ٢٥)

وقال في سحره، اليوم الذي ضرب فيه:

مَلَكَتْنِي عَيْنِي (١) وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ (٢) لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ»، فَقُلْتُ: أَبْدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدَلْهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي. (خطبة ٦٩)

هذا ما كان من أمر القاسطين، معاوية وأصحابه، وأما المارقون الذين أنجبتهم حرب صفين، فالحديث عنهم في الفصل التالي.

(١) مَلَكَتْنِي عَيْنِي: غلبني النوم.

(٢) سَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ: مرّبي كما تسنح الضباء والطيور.

الفصل العاشر:

المارقون

المارقون هم الخوارج، وهم الفئة الثالثة التي أمر عليه السلام بقتالها.

عودة الى صفين

في ذلك اليوم من صفين، وعقيب ليلة الهرير الشهيرة، كان بزوغ الخوارج، أولئك الذين حولوا النصر الوشيك للإمام الى هزيمة، عندما رفعت المصاحف في صفوف أهل الشام بإشارة من عمرو بن العاص لما رأى الاشترا على مشارف معسكر صاحبه معاوية.

أظهر أهل الشام الدعوة الى حكم القرآن لإنهاء القتال، فحمل الخوارج هذا الشعار وجاءوا عليا يطالبونه بالنزول عند حكم القرآن، وقد حاول عليه السلام إقناعهم بأن القوم ليسوا أهل قرآن وإنما هي خديعة ولكن دون جدوى، فالتفوا حوله وهددوه بأن ينقلبوا عليه اذا لم يوقف القتال فوراً، فإضطر عليه السلام للنزول عند رغبتهم كارهاً مضطراً، وقد ذكرهم عليه السلام بموقفه وموقفهم من رفع المصاحف، بعد ان تبينت الخديعة، فقال :

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيَلَةٌ وَغِيْلَةٌ وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةٌ: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا
وَاسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ
ظَاهِرُهُ إِيْمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ،
وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقِ نَعَقٍ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ. (خطبة
١٢١)

وبعد توقف القتال كتب معاوية الى علي عليه السلام كتابا جاء في جملته:

وقد دعوتكم الى امر لنا ولك فيه حياة وعذر، ان نحكم بيني وبينك حكمن مرضيين، أحدهما من أصحابي والآخر من أصحابك، فيحكمان بيننا بما أنزل الله (١)

ووافق علي عليه السلام على طلب معاوية، فبعث جماعة من قراء أهل العراق، وبعث معاوية جماعة من قراء أهل الشام، فاجتمعوا وتدارسوا أمرهم، وعاد كل فريق الى قومه، أما قراء أهل الشام فأعلنوا انهم اختاروا عمرو بن العاص ليكون الناطق باسمهم، وأما أهل العراق فقد عينوا أبو موسى الأشعري لهذه المهمة. وبالطبع لم يوافق

الإمام عليه السّلام على هذا الإختيار بسبب موقف الأشعري المعادي للإمام عندما استنفر أهل الكوفة للحاق به لحرب الجمل، وقد بين عليه السّلام لهم ذلك فقال:

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَاخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ، وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطُّعُوا أَوْ تَارِكُمْ وَشِيْمُوا سِيُوفَكُمْ (١) فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمْتَهُ التُّهْمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ. (خطبة ٢٣٦)

ولكن جماعة القراء رفضوا عبد الله بن عباس، فاقترح عليهم الأشتر، ولكنهم رفضوا أيضاً وأصروا على الأشعري، حينئذ وافق الإمام عليه السّلام مكرهاً غير مختار.

وبعد أن تمت موافقة الفريقين على الأشعري وابن العاص، كتب أهل العراق وأهل الشام كتاباً يقررون فيه ما اتفقوا عليه، وكان من جملة النص على المودعة وترك القتال سنة كاملة، يجب على الحكّمين خلالها أن يجتمعا ويحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه.

وعندما تمّ الكتاب وشهد عليه الشهود، حمله الأشعث ومرّ به على صفوف أهل الشام يقرؤه عليهم، فوافقوا عليه بأجمعهم، ثم قرأه على أهل العراق، فوافق أكثرهم، ولكن من بين الصفوف خرجت كلمة تدل على الرفض، فكان لها ما بعدها، وهي «لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ».

لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ

كلمة مبطنّة تحمل الدّعوة إلى الفوضى، وقد أوضح عليه السّلام ما يريده هؤلاء بإطلاق هذه الكلمة، فقال:

كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا إِمْرَةَ. (خطبة ٤٠)

فمقصودهم بالحكم هو الإمرة، فهم يدعون الى ترك الناس يراعون شؤونهم بأنفسهم دون أن يكون هناك سلطة تحكّمهم، فكانوا يريدون عزل عليّ عليه السّلام ومعاوية وترك الناس وشأنهم، وهذه الفكرة لازمت دعوتهم الى الوقت الذي اتفقوا فيه على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص. وقد تمكّنوا من عليّ عليه السّلام بينما جرح معاوية، ونجا ابن العاص بأعجوبة أو باتفاق. وقد أدرك عليه السّلام أبعاد هذه الدعوة وخطورتها، ونبة أصحابه الى مغزاهما، وحذّرهم من تجاهل معتنقيها، حتى قال:

أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشُّعَارِ فَأَقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ. (خطبة ١٢٧)

والخوارج عندما طرحوا هذا الشعار أوضحوا مرادهم فيه، حيث اتبعوه بقولهم: الحكم لله يا عليّ لا لك، لا نرضى

(١) شيموا سيوفكم: أغمدوها ولا تقاتلوا.

بأن يحكم الرجال في دين الله، وإن الله قد أمضى حكمه في معاوية وأصحابه أن يُقتلوا أو يدخلوا تحت حكمنا عليهم (١).

وردّ عليه السّلام على مغالطتهم بقوله:

إِنَّا لَمْ نُحَكِّمِ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَّمْنَا الْقُرْآنَ. وَهَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَطُّ مَسْتُورٍ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ لَا يَنْطِقُ
بِلِسَانٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجَمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ. (خطبة ١٢٥)

سخرية الموقف

أصحاب الإمام عليه السّلام الذين فرضوا عليه وقف القتال بعد أن أوشك على النصر، والذين أجبروه على تحكيم الأشعري، عادوا وغيّروا رأيهم في الموضوع، وأرادوا من الإمام عليه السّلام أن يجيبهم الى رأيهم الجديد، فقالوا: قد كنا زللنا وأخطأنا حين رضينا بالحكمين، وقد بان لنا زللنا وخطؤنا فرجعنا الى الله وتبنا، فارجع انت يا عليّ كما رجعنا، وتب الى الله كما تبنا، وإلا برئنا منك (٢).

فسخرية الموقف هي في أنهم بعد أن فرضوا رأيهم على الإمام عليه السّلام في الرجوع عن القتال وقبول التحكيم، عادوا يفرضون عليه أن ينبذ التحكيم ويعترف على نفسه بالخطأ والكفر، والتوبة من ذلك. ولكن الإمام عليه السّلام رفض منهم كلا الأمرين، فهو عندما قبل بالتحكيم بعد إصرارهم عليه كان يتنازل عن حقّ من حقوقه وكذلك عندما رضي بشخص أبي موسى، ولكن الموقف الآن تغيّر، فليس بإمكانه أن ينكث ما اتفق عليه مع القوم ولذلك أجابهم: ويحكم أبعده الرضا والميثاق والعهد نرجع، حتى ان بعض أصحابه خاطبه بقوله:

نهيتنا عن الحكومة ثمّ أمرتنا بها، فما ندري أيّ الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه
على الأخرى ثمّ قال: هذا جزاء من ترك العُقْدَةَ. (خطبة ١٢٠)

كما أنه يستحيل عليه الاعتراف على نفسه بالكفر كما يريدون لأنه كما قال موبخاً لهم:

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ (٣) وَلَا بَقِيَّ مِنْكُمْ أَبْرٌ، أَبَعَدَ إِيمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ. (خطبة ٥٧)

فكيف يعترف على نفسه بالكفر من وُلد على الفطرة وسبق الى الإيمان والهجرة؟ ولكنه عندما رأى إصرارهم على طلبهم حاول الاحتجاج عليهم من ناحية أخرى فخاطبهم بقوله:

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ - ص ٢٣٨

(٢) شرح ابن أبي الحديد ج ٢ - ص ٢٣٨

(٣) الحاصِبُ: ريح شديدة تحمل التراب والحصى، والجملة دعاء عليهم بالهلاك.

فإن أبيتُم إلا أن تزعموا أنني أخطأت و ضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وآله بضلالي، وتأخذونهم بخطي، وتكفرونهم بذنوبي! سيوفكم على عواتقكم تصعونها مواضع البراءة والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب. وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفيء ونكح المسلمات، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم ستمهم من الإسلام، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله. (خطبة ١٢٧)

فالخوارج رأوا أن الاعتراف بالتحكيم معصية كبيرة، واعتقدوا أن فاعل الكبيرة يعد كافرا، لذلك ادّعوا عليه بالكفر وطلبوا منه الاعتراف بذلك ثم التوبة.

وفي احتجاجه عليهم هنا يناقشهم في هذه القاعدة التي يتمسكون بها، فجاءهم بالأدلة على أن فاعل المعصية الكبيرة ليس كافرا، لذلك كنا نرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرمم الزاني المحصن ثم يصلي عليه ويورث أهله، ويقتل القاتل ثم يورث أهله كذلك، وكان يقطع يد السارق، ويجلد الزاني غير المحصن ثم يقسم عليهما من فيء المسلمين ويسمح لهما بالتزويج من بناتهم.

فهؤلاء جميعا قد فعلوا الكبائر وكان النبي يعاقبهم على ما فعلوه دون أن يخرجهم عن الإسلام. وكأنما يريد الإمام عليه السلام أن يقول: على فرض التسليم بأني قبلت الحكومة، وبعد القول بأنها معصية كبيرة فإنها لا تستلزم الكفر، لأن فاعل الكبيرة ليس كافرا كما اتضح.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا كان الإمام قد أخطأ وضل بسبب التحكيم فما ذنب بقية المسلمين التابعين له حتى يقتلهم الخوارج ويمثلوا بهم كما فعلوا مع كثيرين؟

اجتماع الحكمين

كان عليه السلام يدرك بأن اجتماع الحكمين لن يؤدي الى نتيجة، ولكن مع ذلك ترك الأمور لمسارها عسى أن يهتدي قومه مع الوقت ويصلح أمر الأمة، لذلك نرى انه قد أعطى مدة سنة كاملة للحكمين يجتمعان خلالها، فقال:

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِيَتَّبِعَنَّ الْجَاهِلُ، وَيَتَّبِعَتَّ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا تُؤْخَذُ بِأَكْظَامِهَا (١) فَتَعْجَلَ عَنِ تَبْيِينِ الْحَقِّ، وَتَتَّقَادَ لِأَوَّلِ الْغَيِّ. (خطبة ١٢٥)

وكيف يمكن أن يأمل عليه السلام من تحكيم الأشعري خيرا، وقد علم موقفه منه منذ حرب الجمل، حتى الخوارج لم

(١) الاكظام جمع كظم محركة: مخرج النفس. والخذ بالاكظام: المضايقة والاشتداد بسلب المهلة.

يختاروه إلا لعلمهم بعدم ميله لعلّي، فيوم صفيين عندما طرح عليه السّلام إسم ابن عباس للتحكيم، كان جواب الخوارج: «لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء، ليس الى واحد منكما بأدنى من الآخر» (١).

فحكّم أهل العراق ميله الى الطرفين على حد سواء، ان لم يكن الى معاوية أقرب، بينما حكّم أهل الشام يتفانى في سبيل معاوية ضد عليّ، فأي عدل يمكن أن ينجم عنهما بعد هذا؟

اجتمع الحكمان في دومة الجندل للتباحث، وإستمر لقاءهما مدة من الزمن، تمكن خلالها ابن العاص من إكتساب ثقة الأشعري بالمخادعة والمراوغة، فكان عندما يخاطبه يبدأ بقوله: يا صاحب رسول الله، وكان يعطيه صدر المجلس دائما ويقدمه للصلاة، ولا يتكلم قبله، والى ما شاكل ذلك.

كانت فكرة الأشعري التي جاء بها أن يعزل كلاً من عليّ ومعاوية ويولّي على المسلمين عبدالله بن عمر، وذلك بقصد إحياء سيرة عمر بن الخطّاب من جديد. ولكن عمرو بن العاص رفض ذلك، فأقترح ابو موسى شيئاً آخر وهو عزل الإثنين معا وترك الأمر شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من شاءوا. وتم الإتفاق على ذلك، وعندما أراد اإعلانه للناس قدّم عمرو بن العاص الأشعري للتكلم قبله كالعادة، فاعتلى المنبر وقال من جملة كلامه:

«قد أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع عليّ ومعاوية، وان يُستقبل هذا الأمر فيكون شورى بين المسلمين، يولّون أمورهم من أحبوا، واني خلعت عليا ومعاوية، فاستقبلوا أموركم وولّوا من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً».

ثم تبعه عمرو بن العاص فاعتلى المنبر وقال: «إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وانا أخلع صاحبه وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة» (٢)

وباء أمر الحكّمين بالفشل، إذ تركا القرآن وحكما برأيهما، فعاد الإمام عليه السّلام يذكر قومه بما كان يراه منذ البداية، موضحاً رأيه في التحكيم، حيث قال:

فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانِ لِيُحْيِيَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمَيِّتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْاِفْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرَّنَا الْقُرْآنُ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَاهُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا. فَلَمْ آتِ لَأَبَا لَكُمْ بُجْرًا (٣) وَلَا خَتْلُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لِبَسْنَتِهِ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَلَّا يَتَّعَدِيَا الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهَمَّا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضَيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمْدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. (خطبة ١٢٧)

(١) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٢٨

(٢) شرح ابن ابي الحديد ج ٢ - ص ٢٥٥

(٣) البُجْر بضم الباء: الشر والامر العظيم.

وقال أيضا في هذا الشأن:

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَجَعَا (١) عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ،
وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ (٢) فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَمَا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ
هُوَ هُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ دَابَّهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ
رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ
مَعْكُوسِ الْحُكْمِ. (خطبة ١٧٧)

فالإمام عليه السّلام يُعلن صريحا رفضه لما جاء به الحكماء، وذلك لأن شرط تحكيمهما كان أن يعملوا بالقرآن وسنة
النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، لا يتجاوزان ذلك، ولكنهما حكما تبعاً لأهوائهما، فلا حرج بعد هذا أن يرفض الإمام
عليه السّلام حكمهما.

نهاية المطاف مع الخوارج

عندما فشل الحكماء وانتهت الهدنة، قرر الإمام عليه السّلام المسير الى معاوية من جديد، ولكن الخوارج كانوا
يشكّلون خطرا حقيقيا على الكوفة فيما لو خرج رجالها لحرب معاوية. وقد كان تجمّع الخوارج في منطقة تبعد ميلين
من الكوفة تدعى الحرورية، فرأى إنهاء أمرهم قبل التوجّه الى معاوية، وكان عليه السّلام يعلم يقينا بأن مصيرهم
على يديه، وأنه لن ينجو منهم عشرة، فنراه وقد جاءه بعض أصحابه يخبرونه بأن القوم قد عبروا النهر، يقول:

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللَّهِ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ. (خطبة ٥٨)

وهكذا كان، فقد قُتل من أصحاب علي عليه السّلام تسعة، وأفلت من الخوارج ثمانية، ولكن تلك كانت نهايتهم مؤقتا،
والا فإنهم باقون في أصلاب الرجال، وسيأتي يوم يظهرون فيه من جديد، لذلك قال عند نهاية المعركة وقد أخبره
أصحابه بأن القوم هلكوا بأجمعهم:

كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نُطْفٌ فِي أَصْلَابِ الرَّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ (٣) كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ (٤) حَتَّى
يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَابِينَ. (خطبة ٥٩)

ويبقى أن نقول: إنّ الخوارج بالرغم من ضلالهم فإنهم كانوا خيرا من معاوية، لذلك أوصى الإمام عليه السّلام بعدم
قتالهم من بعده مبررا ذلك بقوله:

(١) يُجْعَجَعَا: من ججع البعير إذا برك، ولزم الجعجاع أي الارض، أي أن يقيما عند القرآن.

(٢) والتبع محركا: التابع، للواحد والجمع. وتاها: أي ضلّا

(٣) قَرَارَاتِ النِّسَاءِ: كناية عن الارحام.

(٤) كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ: كلما ظهر أوطلع منهم رئيس قُتل

لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ. (خطبة ٦٠)

فهو انما قاتلهم لأنهم خرجوا عليه ونقضوا بيعته، فكان من واجبه قتالهم وردّهم الى طاعته، وأما بعد وفاته فليس على المسلمين ان يحملوا عبء قتالهم، والإمام عليه السّلام يقارن بينهم وبين معاوية، فهم قد طلبوا الحق ولكن أخطأوا طريقه، بينما معاوية كان يعرف الحق ولكنه كان يرفضه ويسعى الى الباطل وقد أدركه، فهو شر منهم لذلك أمر قومه بقتاله من بعده، فقال موصيا لهم:

أَمَّا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ (١) بَعْدِي رَجُلٌ رَحِبُ الْبُلْعُومِ (٢) مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ (٣) يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ. (خطبة ٥٦)

ثم يتنبأ عليه السّلام بما سيكون عليه أمر الخوارج من بعده، فيخاطبهم قائلا:

أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَقْتُلُونَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَأَثَرَةً (٤) يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً. (خطبة ٥٦)

فهو يخبرهم بذلك بعد أن درس حالهم وعرف طباعهم، فهم ثاروا عليه لانهم اتهموه بالكفر، وهم مستمرّون في سيرتهم من رفض كل ما يعتقدونه معصية تستلزم الكفر، وكان عليه السّلام يدرك أنّ الأيدي التي ستتسلم الخلافة من بعده ستكون أيدي ظالمة تحكم بغير الحق، ولذا سيثور عليها الخوارج، وبالطبع فالحكام لن يسكتوا عنهم بدورهم، بل سيطاردوهم ويقتلوهم أينما وجدوا، ولعل هذا من أسباب وصية الإمام عليه السّلام بعدم قتالهم.

ولكن هؤلاء الذين تواصى الإمام عليه السّلام بهم لم يتواصوا به، فغدروا به وهو يصلي بالناس.

وبهذا نأتي الى نهاية مطافنا مع موضوع من أهم المواضيع التي تمسّ المسلمين بشكل مباشر موضوع الخلفاء والخلافة، وذلك بما استفدناه من كلام أمير المؤمنين عليّ بن ابي طالب عليه السّلام. ولنا لقاء قريب آخر إن شاء الله مع عليّ عليه السّلام ومع موضوع آخر لا يقل أهمية، إذ يتناول «الطبقات الاجتماعية» وذلك من خلال نهج البلاغة.

(١) سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ: سيغلب.

(٢) رَحِبُ الْبُلْعُومِ: واسع.

(٣) مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ: عظيم البطن بارزه، كأنه لعظمه مُندلق من بدنه يكاد يبين عنه، وأصل «اندحق» بمعنى انزلق.

(٤) الأثرّة: الاستبداد بفوائد الملك.

الفهرس الموضوعي

لكلمات نهج البلاغة الواردة في هذا الكتاب

الخلافة والخلفاء

لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتَعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيُبْلَغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيُجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيُسْتَرَاخَ مِنْ فَاجِرٍ (خطبة ٤٠)

وَمَكَانُ الْقِيَمِ بِالْأَمْرِ مَكَانُ النَّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنْ انْقَطَعَ النَّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَدَافِيرِهِ أَبَدًا (خطبة ١٤٦)

السُّلْطَانُ وَزَعَةَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ (حكمة ٣٢٣)

لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفُرُوجِ وَالذَّمَاءِ وَالْمَعَانِمِ وَالْأَحْكَامِ وَإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ نَهْمَتُهُ وَلَا الْجَاهِلُ فَيُضِلُّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلَا الْجَافِي فَيَقْطَعُهُمْ بِجَفَائِهِ، وَلَا الْجَائِفُ لِلدُّوَلِ فَيَتَّخِذُ قَوْمًا دُونَ قَوْمِ، وَلَا الْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ فَيَذْهَبَ بِالْحُقُوقِ وَيَقِفَ بِهَا دُونَ الْمَقَاطِعِ وَلَا الْمَعْطَلُ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الْأُمَّةَ (خطبة ١٣١)

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ وَلَا يُضَارِعُ وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ (حكمة ١٠٥)

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى أُمَّةِ الْعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعْفَةِ النَّاسِ، كَيْلًا يَتَّبِعَ بِالْفَقِيرِ فَقْرَهُ (خطبة ٢٠٩)

آلَةُ الرِّيَاسَةِ سَعَةُ الصِّدْرِ (حكمة ١٦٦)

وَاللَّهُ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا، أَوْ أَدْفَعَ بَاطِلًا (خطبة ٣٣)

لمن كانت الوصية؟

إِنَّ الْأَيْمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ غُرِسُوا فِي هَذَا الْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لَا تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلَا تَصْلُحُ الْوُلَاةُ مِنْ غَيْرِهِمْ (خطبة ١٤٤)

أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا (خطبة ٣)

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللَّهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ (خطبة ٧٣)

وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَمَّا قَرَّعْتُهُ بِالْحُجَّةِ فِي الْمَاءِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهِتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ (خطبة ١٧٢)

وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي (خطبة ١٧٢)

فَجَزَتْ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي، فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَّبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي (كتاب ٣٦)

فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تَزْعِجُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنْحَوَةٌ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ (كتاب ٦٢)

لَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ (خطبة ٢)

المؤامرة الكبرى

قالوا: لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير. قال عليه السلام: فهلاً احتججتم عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وصى بأن يحسن إلى محسنيهم، ويتجاوز عن مسيئهم؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام: لو كانت الامارة فيهم لم تكن الوصية بهم. ثم قال: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله. فقال عليه وآله. فقال عليه السلام: احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة (خطبة ٦٦)

وَاعْجَبَاهُ! أَتَكُونُ الْخِلَافَةَ بِالصَّحَابَةِ وَلَا تَكُونُ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ؟ وَرَوِي لَهُ شَعْرٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ:

فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكَتْ أُمُورَهُمْ * فَكَيْفَ بِهِذَا وَالْمُشِيرُونَ غَيْبُ

وَإِنْ كُنْتَ بِالْقُرْبَى حَجَجْتَ خَصِيمَهُمْ * فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ (حكمة ١٨٠)

وَلَمَّا اخْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَلَجُّوا عَلَيْهِمْ فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بغيره فالانصار على دعواهم (كتاب ٢٨)

أَمَّا الْاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِالرَّسُولِ نَوْطًا فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثْرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ،

وَسَخَتْ عَنْهَا نَفُوسُ آخِرِينَ (خطبة ١٦٢)

فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ (كتاب ٢٨)

وَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ لَحَرِيصٌ. فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ (خطبة ١٧٢)

أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَا، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّيْلُ، وَلَا يَرْقَى إِلَيَّ الطَّيْرُ (خطبة ٣)

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتُعْتَبَ فَإِنْ أَبِي قُوَيْلٍ (خطبة ١٧٣)

وَقُلْتُ: إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّى أَبَايَعِ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَهُ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَأَفْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاظَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مَا لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي دِينِهِ (كتاب ٢٨)

فَإِنْ أَقْلُ يَقُولُوا حَرَصَ عَلَى الْمُلْكِ، وَإِنْ أَسْكُتُ يَقُولُوا جَزَعَ مِنَ الْمَوْتِ (خطبة ٥)

نقد الخلفاء

فَيَا عَجَبًا!! بَيْنَا هُوَ يَسْتَقْبِلُهَا فِي حَيَاتِهِ إِذْ عَقَدَهَا لِأَخْرَ بَعْدَ وَقَاتِهِ لَشَدِّ مَا تَشَطَّرَا ضَرَّ عَيْنَهَا (خطبة ٣)

لَمْ تَكُنْ بَيِّعْتُمْكُمُ إِيَّايَ فَلْتَةً وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِدًا (خطبة ٦)

لِلَّهِ بَلَاءُ فُلَانٍ، فَلَقَدْ قَوَّمَ الْأَوْدَ، وَدَاوَى الْعَمَدَ وَأَقَامَ السُّنَّةَ، وَخَلَّفَ الْفِتْنَةَ، ذَهَبَ نَقِيَّ الثُّوبِ، قَلِيلَ الْعَيْبِ، أَصَابَ خَيْرَهَا، وَسَبَقَ شَرَّهَا، أَدَّى إِلَى اللَّهِ طَاعَتَهُ، وَاتَّقَاهُ بِحَقِّهِ، رَحَلَ وَتَرَكَهُمْ فِي طُرُقٍ مَتَشَعِّبَةٍ لَا يَهْتَدِي بِهَا الضَّالُّ، وَلَا يَسْتَيْقِنُ الْمُهْتَدِي (خطبة ٢٢٧)

فَصَيَّرَهَا فِي حَوْزَةِ حَسَنَاءَ، يَغْلُظُ كَلِمَهَا وَيَخْشُنُ مَسْهَاهَا، وَيَكْتُرُ الْعِنَارُ فِيهَا وَالْأَعْتَادُ مِنْهَا (خطبة ٣)

حَتَّى إِذَا مَضَى لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ، فَيَالِلَهُ وَلِلشُّورَى! مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ، حَتَّى صِرْتُ أَقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ (خطبة ٣)

فَصَغَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضِغْنِهِ وَمَالَ الْأَخْرُ لِصِبْهِهِ، مَعَ هُنَّ وَهَنَ إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجًا حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ (خطبة ٣)

عَجَباً لِابْنِ النَّابِغَةِ، يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِيَّ دُعَابَةً وَأَنِّي امْرُؤٌ تَلْعَابَةٌ أُعَافِسُ وَأُمَارِسُ، لَقَدْ قَالَ بَاطِلاً، وَنَطَقَ آثِمًا
(خطبة ٨٣)

قالوا: وقام إليه رجل من أهل السواد عند بلوغه إلى هذا الموضع من خطبته، فناوله كتاباً، فأقبل ينظر فيه، فلما فرغ من قراءته قال له ابن عباس: يا أمير المؤمنين، لو اطَّردت مَقالتك من حيث أفضيت فَقَالَ عليه السلام: هَيْهَاتَ يَا بَنَ عَبَّاسِ! تِلْكَ شِقْشِقَةٌ هَدَرَتْ ثُمَّ قَرَّتْ. قَالَ ابن عباس: فوالله ما أسفت على كلام قطَّ كَأَسْفِي على ذلك الكلام أَلَّا يكون أمير المؤمنين عليه السلام بلغ منه حيث أراد (خطبة ٣)

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجًا حِضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلْفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ خَضْمَ الْأَيْلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ
(خطبة ٣)

استأثر فأساء الأثرَةَ (خطبة ٣٠)

مبررات الإمام عليه السلام

قال عبدالله بن عباس رحمه الله: دخلت على أمير المؤمنين صلوات الله عليه بذني قار وهو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها! قال: والله لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ، إِلَّا أَنْ أَقِيمَ حَقًّا، أَوْ أَدْفَعُ بَاطِلاً (خطبة ٣٣)

لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِي، وَوَاللهِ لَأُسَلِّمَنَّ مَا سَلِمْتَ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا جَوْرٌ إِلَّا عَلَيَّ خَاصَّةً، التَّمَسَاً لِأَجْرِ ذَلِكَ وَفَضْلِهِ، وَزُهِدًا فِيمَا تَنَافَسْتُمُوهُ (خطبة ٧٣)

وَاللهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ (خطبة ٢٠٥)

وَطَفِقتُ أُرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بِيَدِ جَدَاءٍ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءٍ (خطبة ٣)

أَفْلَحَ مَنْ نَهَضَ بِجَنَاحٍ، أَوْ اسْتَسَلَّمَ فَأَرَاخَ (خطبة ٥)

فَنظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ (خطبة ٢٦)

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِيَالُ النَّاسِ عَلَيَّ فَلَانَ يُبَايِعُونَهُ، فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَحَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ أَهْلُهُ أَنْ أَرَى فِيهِ تَلْمَأً أَوْ هَدْمًا، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قَوْتِ وَلَايَتِكُمْ (كتاب ٦٢)

أَيُّهَا النَّاسُ، شَفُّوا أَمْوَاجَ الْفِتَنِ بِسُفْنِ النَّجَاةِ (خطبة ٥)

وَمُجْتَبِي الثَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتِ إِنْبَاعِهَا كَالزَّرْعِ بغيرِ أَرْضِهِ (خطبة ٥)

خلافة عثمان

إِنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى الْأُمَّةِ وَالْأَحْدَثِ أَحْدَاثًا، وَأَوْجَدَ النَّاسَ مَقَالًا فَقَالُوا، ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا (خطبة ٤٣)

وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ وَجَزَعْتُمْ فَأَسَأْتُمْ الْجَزَعَ (خطبة ٣٠)

إِلَى أَنْ قَامَ ثَالِثُ الْقَوْمِ، نَافِجًا حِضْنِيهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلِفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أَبِيهِ يَخْضَمُونَ مَالَ اللَّهِ حِضْمَ الْأَبْلِ نَبْتَةَ الرَّبِيعِ (خطبة ٣)

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي، وَقَدْ اسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ، إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغُكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا صَحَبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَشِيجَةَ رَحِمِ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مَنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا (خطبة ١٦٤)

وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَشِيجَةَ رَحِمِ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مَنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَالَلَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تُعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لِقَائِمَةٌ (خطبة ١٦٤)

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَّ وَهَدِي، فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بِدْعَةَ مَجْهُولَةٍ، وَإِنَّ السُّنَنَ لَنَبِيْرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بِدْعَةَ مَثْرُوكَةٍ. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلا يَسَّ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَادِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا».

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبِئُتُ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، يَمْوُجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرَجًا. فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السُّنَنِ وَتَقْضِي الْعُمُرِ).

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلِمَ النَّاسِ فِي أَنْ يُوجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ (خطبة ١٦٤)

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرُ اسْتِعْنَابِهِ وَأَقْلُ عِتَابِهِ (كتاب ١)

فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ (كتاب ٢٨)

يَابْنَ عَبَّاسَ، مَا يُرِيدُ عَثْمَانُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَنِي جَمَلًا نَاضِحًا بِالْغَرْبِ أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدَمَ، ثُمَّ هُوَ الْآنَ يَبْعَثُ إِلَيَّ أَنْ أَخْرُجَ، وَاللَّهِ لَقَدْ دَفَعْتُ عَنْهُ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ آثِمًا (خطبة ٢٤٠)

لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلًا، أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِرًا، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ خَذَلَهُ مَنْ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، وَمَنْ خَذَلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. وَأَنَا جَامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَسَاءَ الْأَثَرَةَ وَجَزَعْتُمْ فَأَسَأْتُمْ الْجَزَعَ وَاللَّهُ حَكْمٌ وَاقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجَارِعِ (خطبة ٣٠)

خلافة الإمام عليه السلام

فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ الْعُودِ الْمَطَايِلِ عَلَى أَوْلَادِهَا، تَقُولُونَ: الْبَيْعَةُ الْبَيْعَةُ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُمْ يَدِي فَجَادَبْتُمُوهَا (خطبة ١٣٧)

وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِي فِي الْخِلَافَةِ رَغْبَةٌ، وَلَا فِي الْوِلَايَةِ إِرْبَةٌ وَلَكِنَّكُمْ دَعَوْتُمُونِي إِلَيْهَا، وَحَمَلْتُمُونِي عَلَيْهَا (خطبة ٢٠٥)

دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجُوهٌ وَالْوَانُ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَنْتَبِتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ.

وَاعْلَمُوا أَنِّي إِنْ أَحْبَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أُصْغِرْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَثِبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكَتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا (خطبة ٩١)

اضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ النَّاسِ، فَهَلْ تُبْصِرُ إِلَّا فَقِيرًا يُكَابِدُ فَقْرًا، أَوْ غَنِيًّا بَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، أَوْ بَخِيلًا اتَّخَذَ الْبُخْلَ بِحَقِّ اللَّهِ وَفَرًا، أَوْ مُتَمَرِّدًا كَانَ بِأُذُنِهِ عَن سَمْعِ الْمَوَاعِظِ وَفَرًا! (خطبة ١٢٩)

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَّثَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَفَسَقَ وَقَسَطَ آخَرُونَ (خطبة ٣)

أَلَا وَقَدْ أَمَرَنِي اللَّهُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ وَالنِّكَثِ وَالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا النَّاكِثُونَ فَقَدْ قَاتَلْتُمْ، وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَقَدْ جَاهَدْتُمْ، وَأَمَّا الْمَارِقَةُ فَقَدْ دَوَّخَتْ (خطبة ١٩٢)

الناكثون

وَكَانَ مِنْ عَائِشَةٍ فِيهِ فَالْتَهُ غَضَبٌ، فَأَتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ (خطبة ١)

وَأَمَّا فَلَانَةٌ، فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِعْنَ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ الْقَيْنِ وَلَوْ دُعِيَتْ لَتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ، وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى، وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ (خطبة ١٥٦)

وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنُتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ (خطبة ١٧٤)

إِنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَمَالَوْا عَلَى سَخَطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا (خطبة ١٦٩)

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الْأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لَا يَمْتَنَانِ إِلَى اللَّهِ بِحَبْلِ، وَلَا يَمْدَانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ. كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلٌ ضَبِّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يُكْشَفُ قِنَاعُهُ بِهِ! وَاللَّهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا (خطبة ١٤٨)

نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر. فقال: لا، ولكنكما شريكان في القوة والإستعانة، وعونان على العجز والأود (خطبة ١٩٢)

وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِنَّ النِّسَاءِ، وَمُلِكَ بِهِنَّ الْأَمَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقٌ (خطبة ١٥)

لَقَدْ نَفَمْتُمَا يَسِيرًا، وَأَرْجَأْتُمَا كَثِيرًا، أَلَا تُخْبِرَانِي، أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِيهِ حَقٌّ دَفَعْتُكُمْ عَنْهُ؟ وَأَيُّ قَسَمٍ اسْتَأْثَرْتُ عَلَيْكُمَا بِهِ؟ أَمْ أَيُّ حَقٍّ رَفَعَهُ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ضَعُفْتُ عَنْهُ، أَمْ جَهَلْتُهُ، أَمْ أَخْطَأْتُ بَابَهُ (خطبة ٢٠٥)

يَزْعُمُ أَنَّهُ قَدْ بَايَعَ بِيَدِهِ، وَلَمْ يُبَايِعْ بِقَلْبِهِ، فَقَدْ أَقْرَبَ بِالْبَيْعَةِ، وَادَّعَى الْوَلِيَجَةَ فَلَيَاتِ عَلَيْهَا بِأَمْرٍ يُعْرِفُ، وَإِلَّا فَلْيَدْخُلْ فِيمَا خَرَجَ مِنْهُ (خطبة ٨)

فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعِينَ، فَارْجِعَا وَتُوبَا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ، وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ (كتاب ٥٤)

وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَظْنُتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشَّكُّ.

وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانٍ ظَالِمًا كَمَا كَانَ يَزْعُمُ لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَارِيَ قَاتِلِيهِ وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ، وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنْهَنِّهِينَ عَنْهُ وَالْمُعَدِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكِّ مِنَ الْخَصَلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ وَيَرْكُدَ جَانِبًا وَيَدْعُ النَّاسَ مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ (خطبة ١٧٤)

وَاللّٰهُ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا، وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيفًا، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ (خطبة ٢٢)

إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيَّ، فَكُنْتُ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَكْثَرَ اسْتِعْتَابِهِ وَأَقْلَّ عِتَابِهِ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنَ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ وَأَرْفَقَ حَدَائِهِمَا الْعَنِيفُ، وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ قُلْتُهُ غَضَبٌ، فَأَتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ (كتاب ١)

وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكَوهُ، وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ، فَلَنْ كُنْتُ شَرِيكُهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنْصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَنْ كَانُوا وَلَوْهُ دُونِي، فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ (خطبة ٢٢)

أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ وَاسْتَجَلَبَ جَلْبَهُ لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ، ... يَرْتَضِعُونَ أَمَا قَدْ فَطَمَتْ وَيُخَيُّونَ بِدُعَاةٍ قَدْ أَمِيتَتْ (خطبة ٢٢)

وَقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا اخْتَمَلَ (كتاب ٥٤)

وَاللّٰهُ لَا أَكُونُ كَالضَّبْعِ تَنَامٌ عَلَى طُولِ اللَّذْمِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهَا طَالِبُهَا، وَيَخْتَلِهَا رَاصِدُهَا وَلِكِنِّي أَضْرِبُ بِالْمُقْبِلِ إِلَى الْحَقِّ الْمُدْبِرَ عَنْهُ، وَبِالسَّمْعِ الْمُطِيعِ الْعَاصِيِ الْمُرِيبِ أَبَدًا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمِي. فَوَاللّٰهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي، مُسْتَأْتِرًا عَلَيَّ، مُنْذُ قَبَضَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا (خطبة ٦)

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الْأَنْ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَجْتَمَعَ الْعَارُ وَالنَّارُ (كتاب ٥٤)

يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ (خطبة ٣١)

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَتَا بِيَعْتِي، وَالْبَا النَّاسَ عَلَيَّ، فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلَا تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهِمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلَا وَعَمَلَا (خطبة ١٣٧)

فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا تُجْرُ الْأُمَةُ عِنْدَ شِرَائِبِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِهَمَّا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ (خطبة ١٧٢)

فَقَدِمُوا عَلَيَّ عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا وَطَائِفَةً غَدْرًا (خطبة ١٧٢)

فَقَدِمُوا عَلَيَّ عَمَّالِي، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي فِي يَدَيَّ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ، كُلُّهُمْ فِي طَاعَتِي وَعَلَى بِيَعْتِي، فَشَتَّتُوا كَلِمَتَهُمْ، وَأَفْسَدُوا عَلَيَّ جَمَاعَتَهُمْ، وَوَثَبُوا عَلَيَّ شِيَعَتِي، فَقَتَلُوا طَائِفَةً مِنْهُمْ غَدْرًا، وَطَائِفَةً عَضُّوا عَلَيَّ أَسْيَافِهِمْ فَضَارَبُوا بِهَا حَتَّى لَقُوا اللَّهَ صَادِقِينَ (خطبة ٢١٧)

فَوَاللّٰهُ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلَا جُرْمٍ جَرَّهٖ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ

حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ
(خطبة ١٧٢)

وَلَقَدْ اسْتَنْبَهُمَا قَبْلَ الْقِتَالِ، وَاسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ الْوِقَاعِ فَغَمَطَا النُّعْمَةَ وَرَدَّا الْعَافِيَةَ (خطبة ١٣٧)

مَالِي وَلُفْرَيْشِ! وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَا قَاتَلْتَهُمْ مَقْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ، كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمْ الْيَوْمَ (خطبة ٣٣)

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهَجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمَرْجَلِ وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرَعُوا إِلَى
أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ هَجِّ الْبَلَاغَةِ كِتَاب (١)

مَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ قَوْلٌ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذَيْلَكَ، وَاشْدُدْ مِنْزَرَكَ وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ
وَإِنْدُبْ مَنْ مَعَكَ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَاَنْفُذْ وَإِنْ تَفَشَّلْتَ فَاَبْعُدْ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَتُوتَيْنَنَّ حَيْثُ أَنْتَ، وَلَا تُشْرِكْ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ
وَذَائِبُكَ بِجَامِدِكَ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قَعْدَتِكَ وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ كَحَذْرِكَ مِنْ خَلْفِكَ، وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو، وَلَكِنَّهَا
الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى، يُرَكَّبُ جَمَلُهَا، وَيُدَلُّ صَعْبُهَا، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا.

فَاعْقِلْ عَقْلَكَ وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ، وَخُذْ نَصِيْبَكَ وَحِظَّكَ، فَإِنْ كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ وَلَا فِي نَجَاةٍ، فَبِالْحَرِيِّ لَتُكْفَيْنَنَّ وَأَنْتَ
نَائِمٌ، حَتَّى لَا يُقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ؟ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مَعَ مُحِقٍّ، وَمَا أَبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ، وَالسَّلَامُ هَجِّ الْبَلَاغَةِ كِتَاب (٦٣)

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي خَرَجْتُ مِنْ حَيِّي هَذَا: إِمَّا ظَالِمًا، وَإِمَّا مَظْلُومًا، وَإِمَّا بَاغِيًا، وَإِمَّا مَبْغِيًا عَلَيْهِ. وَأَنَا أَذْكَرُ اللَّهَ مَنْ بَلَغَهُ
كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ فَإِنْ كُنْتُ مُحْسِنًا أَعَانِي، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا اسْتَعْتَبَنِي (كتاب ٥٧)

وَجَزَاكُمُ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ
وَأَطَعْتُمْ، وَدُعَيْتُمْ فَأَجَبْتُمْ (كتاب ٢)

فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ (كتاب ٢٩)

لَقَدْ أَصْبَحَ أَبُو مُحَمَّدٍ بِهَذَا الْمَكَانِ غَرِيبًا، أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ فُرَيْشُ قَتْلَى تَحْتَ بَطُونِ الْكَوَاكِبِ، أَدْرَكْتُ
وَتَرِي مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَأَفْلَتَنِي أَعْيَانُ بَنِي جُمَحٍ، لَقَدْ أَتَلَعُوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَهُ فَوْقِصُوا دُونَهُ (خطبة ٢١٨)

أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْدَارِي فِيكُمْ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا دَفْعَ لَهُ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ، وَقَدْ أَدْبَرَ مَا أَدْبَرَ، وَأَقْبَلَ مَا أَقْبَلَ، فَبَايِعَ مَنْ قَبْلَكَ وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ، وَالسَّلَامُ (خطبة ٧٥)

وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ، وَمَلَكَ بِهِ الْأَمَاءَ، لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ فِي الْعَدْلِ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ (خطبة ١٥)

وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةَ بِأَذَى مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلَا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَذَى النَّاسِ (خطبة ٢٠٠)

وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ (كتاب ٢٨)

أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسٍ أَنَا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ، وَالْيَوْمَ أَنَا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرَهَا (كتاب ٦٤)

فَقَدْ سَلَكَتَ مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ بِأَدْعَائِكَ الْأَبَاطِيلِ، وَإِقْحَامِكَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِيبِ، وَبِانْتِحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ وَابْتِرَازِكَ لِمَا قَدْ اخْتَزَنَ دُونَكَ (كتاب ٦٥)

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَامًا كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضَى، فَإِنِ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْعَنَ أَوْ بَدَعَةَ رَدَّوْهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى (كتاب ٦)

إِنَّ اسْتِعْدَادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشَّامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلَاقٌ لِلشَّامِ، وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرَادُوهُ، وَلَكِنْ قَدْ وَقَّتْ لِحَرِيرٍ وَقْتًا لَا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلَّا مَخْدُوعًا أَوْ عَاصِيًا (خطبة ٤٣)

أَمَا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيْرُهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجَلِيَّةٍ أَوْ سَلْمٍ مُخْزِيَّةٍ فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ وَإِنِ اخْتَارَ السَّلْمَ فَخُذْ بَبَيْعَتِهِ (كتاب ٨)

عَجَبًا لِابْنِ النَّابِغَةِ! يَزْعُمُ لِأَهْلِ الشَّامِ أَنَّ فِي دُعَابَةٍ وَأَنِّي أَمْرٌ تَلْعَابَةٌ أَعَافِسُ وَأَمَارِسُ! لَقَدْ قَالَ بَاطِلًا، وَنَطَقَ أَثِمًا. أَمَا وَشَرُّ الْقَوْلِ الْكَذِبُ إِنَّهُ لَيَقُولُ فَيَكْذِبُ، وَيَعِدُّ فَيُخْلِفُ، وَيَسْأَلُ فَيُبْخَلُ، وَيَسْأَلُ فَيُلْحِفُ وَيَخُونُ الْعَهْدَ، وَيَقْطَعُ الْإِلَّ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْحَرْبِ فَأَيُّ زَاجِرٍ وَأَمْرٍ هُوَ مَا لَمْ تَأْخُذِ السُّيُوفُ مَآخِذَهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ مَكِيدَتِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَوْمَ سُبَّتَهُ. ... إِنَّهُ لَمْ يُبَايِعْ مُعَاوِيَةَ حَتَّى شَرَطَ لَهُ أَنْ يُؤْتِيَهُ أُتْيَةً وَيَرْضَخَ لَهُ عَلَى تَرْكِ الدِّينِ رَضِيخَةً (خطبة ٨٣)

وَلَمْ يُبَايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَنًا، فَلَا ظَفِرَتْ يَدُ الْمُبَايِعِ، وَخَزِيَتْ أَمَانَةُ الْمُبْتَاعِ (خطبة ٢٦)

فَإِنَّكَ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعاً لِدُنْيَا أَمْرِيءَ ظَاهِرِ غَيْهِ، مَهْتُوكِ سِثْرُهُ، يَشِينُ الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ، وَيُسَفِّهُ الْحَلِيمَ بِخِلَاطَتِهِ، فَاتَّبَعْتَ
أَثْرَهُ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ، اتَّبَعَ الْكَلْبُ لِلضَّرْعَامِ يُلُودُ إِلَى مَخَالِبِهِ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيَسَتِهِ، فَأَذْهَبْتَ دُنْيَاكَ
وَأَخْرَتَكَ (كِتَاب ٣٩)

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ (كِتَاب ١٧)

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَى مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ
يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَى لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذَلِكَ لِلَّهِ رِضَى، فَإِنِ خَرَجَ عَنْ
أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بَطْعَنَ أَوْ بَدَعَةَ رَدُّوهُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنِ أَبِي قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا
تَوَلَّى (كِتَاب ٦)

لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُتَنَّى فِيهَا النَّظَرُ وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ، الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ (كِتَاب ٧)

وَلَعَمْرِي، لَئِن كَانَتْ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ
غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ (خُطْبَةٌ ١٧٣)

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتْلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسْعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَى غَيْرِكَ (كِتَاب
٩)

وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً (كِتَاب ١٠)

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قَتْلَةِ عُثْمَانَ، فَادْخُلْ فِيَمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَيَّ، أَحْمِلْكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ. وَأَمَّا تِلْكَ
الَّتِي تُرِيدُ فَإِنَّهَا خُدَعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ (كِتَاب ٦٤)

وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةَ، لَئِن نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عَزْلَةٍ عَنْهُ،
إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى، فَتَجَنَّنَا مَا بَدَأَ لَكَ (كِتَاب ٦)

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ!
أَمْ مَنْ بَدَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَفَعَدَهُ وَاسْتَكْفَفَهُ أَمْ مَنْ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَ أَخِي عَنْهُ بَثَّ الْمُنُونِ إِلَيْهِ حَتَّى أَتَى قَدْرُهُ عَلَيْهِ (كِتَاب ٢٨)

فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَكَ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ (كِتَاب ٣٧)

وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هَذَا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ وَقَلْبُتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرِ لِي إِلَّا الْفِتَالَ أَوْ الْكُفْرَ (خُطْبَةٌ ٤٣)

قَلْبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتَنِي يَسْعُنِي إِلَّا قِتَالُهُمْ أَوْ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ (خُطْبَةٌ ٥٣)

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ (كتاب ٣٠)

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ، وَجَادِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ عَنْكَ (كتاب ٣٢)

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمُرِينُ عَلَى قَلْبِهِ، وَالْمُعْطَى عَلَى بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، ذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي (كتاب ١٠)

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ، وَتَرَكَكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوكُمْ حُجَّةً أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَتْ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلَا تُصِيبُوا مُعُورًا وَلَا تُجْهَرُوا عَلَى جَرِيحٍ (خطبة ١٤)

فَقُلْنَا: تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ وَتَسْكِينِ الْعَامَّةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ، فَنَقُوى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ. فَقَالُوا: بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ (خطبة ٥٨)

أَمَا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجَالًا مِمَّنْ قَبْلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدِيدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غِيًّا وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًّا (كتاب ٧٠)

وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أَسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا (كتاب ٧٠)

وَإِنِّي وَاللَّهِ لِأَظُنُّ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ سَيِّدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ، وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ (خطبة ٢٥)

فَيَا عَجَبًا! عَجَبًا وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنْ اجْتِمَاعِ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحًا لَكُمْ وَتَرَحًّا حِينَ صِرْتُمْ غَرَضًا يُرْمَى، يُعَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغَيِّرُونَ، وَتُغْزُونَ وَلَا تَغْزُونَ، وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضُونَ (خطبة ٢٧)

أَيُّهَا النَّاسُ، الْمَجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ كَلَامُهُمْ يُوهِي الصَّمَّ الصَّلَابَ وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فَيْكُمُ الْأَعْدَاءَ (خطبة ٢٩)

صَاحِبُكُمْ يُطِيعُ اللَّهَ وَأَنْتُمْ تَعْصُونَهُ، وَصَاحِبُ أَهْلِ الشَّامِ يَعْصِي اللَّهَ وَهُمْ يُطِيعُونَهُ (خطبة ٩٦)

لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّ مُعَاوِيَةَ صَارَ فَنِي بِكُمْ صَرَفَ الدَّيْنَارِ بِالدَّرْهِمِ، فَأَخَذَ مِنِّي عَشْرَةَ مِنْكُمْ وَأَعْطَانِي رَجُلًا مِنْهُمْ (خطبة ٩٦)

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَوْلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا وَإِعْلَانًا، وَقُلْتُ لَكُمْ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُواكُمْ، فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا دَلُّوا، فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَادَلْتُمْ حَتَّى شَنَنْتَ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتُ وَمَلَكَتْ عَلَيْكُمْ الْأَوْطَانَ (خطبة ٢٧)

أُنْبِئْتُ بَسْرًا قَدْ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي وَاللَّهِ لِأَظُنُّ... (خطبة ٢٥)

وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا، وَلَقَدْ بَلَّغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعَاهَدَةَ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقَلْبَهَا وَقَلَائِدَهَا، وَرِعَائَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافْرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلِمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ (خطبة ٢٧)

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ أَمْرِي مَعَكُمْ عَلَى مَا أَحِبُّ، حَتَّى نَهَكْتُكُمْ الْحَرْبُ، وَقَدْ، وَاللَّهِ أَخَذْتُ مِنْكُمْ وَتَرَكَتُ، وَهِيَ لِعَدُوِّكُمْ أَنْهَكُ. لَقَدْ كُنْتُ أَمْسَ أَمِيرًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا، وَكُنْتُ أَمْسَ نَاهِيًا، فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنْهِيًا، وَقَدْ أَحْبَبْتُمُ الْبَقَاءَ، وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ (خطبة ٢٠٨)

اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلَلْتُهُمْ وَمَلُونِي، وَسَنِمْتُهُمْ وَسَنِمُونِي، فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرًّا مِنِّي (خطبة ٢٥)

مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ، فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدَدِ؟ فَقَالَ: «ادْعُ عَلَيْهِمْ»، فَقُلْتُ: أَبْدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا لِي مِنْهُمْ، وَأَبْدَلْهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي (خطبة ٦٩)

المارقون

أَلَمْ تَقُولُوا عِنْدَ رَفْعِهِمُ الْمَصَاحِفَ حِيَلًا وَغِيَلًا وَمَكْرًا وَخَدِيْعَةً: إِخْوَانُنَا وَأَهْلُ دَعْوَتِنَا، اسْتَقَالُونَا وَاسْتَرَاخُوا إِلَى كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَالرَّأْيُ الْقَبُولُ مِنْهُمْ وَالتَّنْفِيسُ عَنْهُمْ؟ فَقُلْتُ لَكُمْ: هَذَا أَمْرٌ ظَاهِرُهُ إِيْمَانٌ، وَبَاطِنُهُ عُدْوَانٌ، وَأَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَآخِرُهُ نَدَامَةٌ، فَأَقِيمُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، وَالزُّمُوا طَرِيقَتَكُمْ، وَعَضُّوا عَلَى الْجِهَادِ بِنَوَاجِدِكُمْ، وَلَا تَلْتَفِتُوا إِلَى نَاعِقِ نَعَقٍ: إِنْ أُجِيبَ أَضَلَّ، وَإِنْ تُرِكَ ذَلَّ (خطبة ١٢١)

أَلَا وَإِنَّ الْقَوْمَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تُحِبُّونَ، وَاخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِمَّا تَكْرَهُونَ، وَإِنَّمَا عَهْدُكُمْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ: إِنَّهَا فِتْنَةٌ فَقَطُّعُوا أَوْتَارَكُمْ وَشِيْمُوا سُيُوفَكُمْ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ أَخْطَأَ بِمَسِيرِهِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَقَدْ لَزِمْتَهُ التُّهْمَةُ. فَادْفَعُوا فِي صَدْرِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ (خطبة ٢٣٦)

كَلِمَةٌ حَقٌّ يَرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا أَمْرَةَ (خطبة ٤٠)

أَلَا مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا الشَّعَارِ فَاقْتُلُوهُ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ (خطبة ١٢٧)

إِنَّا لَمْ نُحْكَمْ الرِّجَالَ، وَإِنَّمَا حَكَمْنَا الْقُرْآنَ. وَهَذَا الْقُرْآنُ إِنَّمَا هُوَ حَطُّ مَسْتُورٍ بَيْنَ الدَّقَّتَيْنِ لَا يَنْطِقُ بِلسَانٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَرْجُمَانٍ، وَإِنَّمَا يَنْطِقُ عَنْهُ الرِّجَالُ (خطبة ١٢٥)

نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فما ندري أيّ الأمرين أرشد؟ فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة (خطبة ١٢٠)

أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ وَلَا بَقِيَّ مِنْكُمْ أَبْرٌ، أَبْعَدَ إِيْمَانِي بِاللَّهِ وَجِهَادِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِالْكَفْرِ (خطبة ٥٧)

فَإِنْ أَبِيْتُمْ إِلَّا أَنْ تَزْعُمُوا أَنِّي أَخْطَأْتُ وَضَلَلْتُ، فَلِمَ تُضَلُّونَ عَامَّةً أُمَّةً مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِضَلَالِي، وَتَأْخُذُونَهُمْ بِخَطِيئِي، وَتُكْفِرُونَهُمْ بِذُنُوبِي! سَيُوفِكُمْ عَلَى عَوَاتِقِكُمْ تَضَعُونَهَا مَوَاضِعَ الْبَرَاءَةِ وَالسُّقْمِ، وَتَخْلِطُونَ مَنْ أَدْنَبَ بِمَنْ لَمْ يُذْنِبْ.

وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَجَمَ الزَّانِيَ الْمُحْصَنَ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ وَرَثَهُ أَهْلُهُ، وَقَتَلَ الْقَاتِلَ وَوَرَّثَ مِيرَاثَهُ أَهْلُهُ، وَقَطَعَ السَّارِقَ وَجَلَدَ الزَّانِيَ غَيْرَ الْمُحْصَنِ ثُمَّ قَسَمَ عَلَيْهِمَا مِنَ الْفِيءِ وَنَكَحَا الْمُسْلِمَاتِ، فَأَخَذَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَقَامَ حَقَّ اللَّهِ فِيهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعَهُمْ سَهْمَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يُخْرِجْ أَسْمَاءَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ (خطبة ١٢٧)

وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: لِمَ جَعَلْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ أَجَلًا فِي التَّحْكِيمِ؟ فَإِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِتَبَيِّنِ الْجَاهِلِ، وَيَتَبَيَّنَ الْعَالِمُ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَا تُؤَخِّدُ بِأَكْظَامِهَا فَتَعْجَلَ عَنِ تَبَيِّنِ الْحَقِّ، وَتَنْقَادَ لِأَوَّلِ الْعَيِّ (خطبة ١٢٥)

فَإِنَّمَا حُكِّمَ الْحَكَمَانَ لِإِحْيَايَا مَا أَحْيَا الْقُرْآنُ، وَيُمَيِّتَا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنُ، وَإِحْيَاؤُهُ الْاجْتِمَاعُ عَلَيْهِ، وَإِمَاتَتُهُ الْإِفْتِرَاقُ عَنْهُ، فَإِنْ جَرْنَا الْقُرْآنَ إِلَيْهِمْ اتَّبَعْنَا هُمْ، وَإِنْ جَرَّهُمْ إِلَيْنَا اتَّبَعُونَا.

فَلَمْ آتِ لِأَبَا لَكُمْ بُجْرًا وَلَا خَتْلَتُكُمْ عَنْ أَمْرِكُمْ، وَلَا لَبَسْتُهُ عَلَيْكُمْ، إِنَّمَا اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى اخْتِيَارِ رَجُلَيْنِ، أَخَذْنَا عَلَيْهِمَا إِلَّا يَتَعَدَّى الْقُرْآنَ، فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا فَمَضِيَا عَلَيْهِ، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمَةِ بِالْعَدْلِ، وَالصَّمَدِ لِلْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا، وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا (خطبة ١٢٧)

فَاجْتَمَعَ رَأْيُ مَلِكِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعَهُ فَتَاهَا عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ دَابَّهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا، وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ (خطبة ١٢٧)

مَصَارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ، وَاللَّهُ لَا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ، وَلَا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشْرَةٌ (خطبة ٥٨)

كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نُطْفٌ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصًا سَلَابِينَ (خطبة ٥٩)

لَا تَقْتُلُوا الْخَوَارِجَ بَعْدِي، فَلَيْسَ مَنْ طَلَبَ الْحَقَّ فَأَخْطَأَهُ، كَمَنْ طَلَبَ الْبَاطِلَ فَأَدْرَكَهُ (خطبة ٦٠)

أَمَا إِنَّهُ سَيُظْهِرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ يَأْكُلُ مَا يَجِدُ، وَيَطْلُبُ مَا لَا يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ

أَمَّا إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شَامِلًا، وَسَيْفًا قَاطِعًا، وَأَثْرَةً يَتَّخِذُهَا الظَّالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً (خطبة ٥٦)